

لجنة نشر المؤلفات النعمانية

شفا دار الروح

بمستم

الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك

عضو مجمع قواد الأول للغة العربية

لجنة نشر المؤلفات النورية

شفا دار الروح

بم

الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيموريك

عضو مجمع قواد الأول للغة العربية

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي



الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

مقدمة

بقام خليل ثابت بك

عرفت «لجنة نشر المؤلفات التيمورية» في خلال السنوات السبع التي انقضت على تأليفها ، بأنها دأبة السعى في تقصى مؤلفات المغفور له العلامة المحقق «أحمد تيمور باشا» التي كتبها ولم تر النور ، لكي تريح اللجنة الستار عنها ، وتعمل جاهدة على نشرها في الثوب الذي تنشرها به ، تقديرًا لمكانة مؤلفها القدير ، وتحقيقًا لأداء الرسالة التي حملت رايتها في سبيل نشر الثقافة العامة .

وإذا كانت اللجنة في خلال هذا العمل الكبير ، تجنح إلى فرع من فروع هذه الدوحة التيمورية ، وتنهض بنشر هذا المؤلف الذي نضعه بين يدي القارئ الكريم للكاتب الكبير ، والقاصي النابغة ، حضرة صاحب العزة الأستاذ «محمود تيمور بك» فلتؤكده أن غايتها هي النفع العامي والأدبي بوجه عام من جهة ، وليعلم الناس من جهة أخرى ، أن هذه الأسرة التيمورية ، كبيرها وصغيرها ، ما برحت حريصة على خدمة الأدب ونشر العلم . وهو بعض ما عرف به «محمود تيمور بك» .

فقد ورث عن أبيه وجده وعمته كثيراً من حب الدرس والبحث والإنتاج ، وكان له السبق والتفوق على من سبقوه في وضع القصة ، كما يضعها ، ويضمنها آراءه عن الحياة ، وعن الناس . ويبغى من ذلك أن يعرض ما يمر به من أحداث وأفكار للحياة المصرية الصميمة ، في صور رائعة ، مقرونة بسهولة اللفظ ، وجزالة المعنى ، وسلامة الأسلوب حتى بلغ أوج المجد وغاية الشهرة عن جدارة واستحقاق . وهذه روائع قصصه الكثيرة المتعددة التي تتداولها الأيدي ، ويتهافت على مطالعتها الناس جميعاً ، وتزدان بها المكتبة العربية ، خير شاهد بعقريته ، وفلسفته في الحياة ، ونظراته للأمور نظرة منزهة عن الأغراض .

من أجل ذلك آثرت « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » أن تساهم في نشر بعض ما يكتب هذا الكاتب القصصى ، وقد أضاف إلى تراث الأسرة التيمورية حلقة جديدة ، وأثرأ نافعاً .

وسيجد القارئ الكريم في فصول هذا الكتاب ألواناً شتى في دراسة القضايا الاجتماعية ، وهي بعيدة كل البعد عن التقيد أو التقليد ، شأن المؤلف المبتدع في كل ما يصوغ أو يكتب أو يؤلف . وقد قدر له ذلك كله « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » ، فأسند إليه عضويته اعترافاً بعامه وفضله .

رئيس اللجنة

خديجة تابت

المصادر التي ألهمتني للكتابة

عندما ألتفتُ خلفي متكشفًا ماضىَ حياتي ، أرى أربعة عوامل أساسية قد عملتُ في تكويني كاتبًا :

الأول : والدي « أحمد تيمور » ، والثاني : شقيقى « محمد » ،
والثالث : حوادث خاصة كان لها تأثير في تحويل مجرى حياتي ،
والرابع الأخير : مطالعاتي .

فوالدي جدير أن يكون قد أورثني مؤهلات الكتابة ، وقد
تمهدني منذ النشأة ، وحبَّب إليَّ المطالعة والتأليف . وأخى هذَّب ذلك
الحبَّ وأذكاه . وحوادث حياتي ثم مطالعاتي هي التي عينتُ لي تلك
الوجهة التي أترسَّمها الآن في حياتي الأدبية .

وُلدتُ في « درب سعادة » وقضيتُ طفولتي في منزل يشبه القلعة
المهدَّمة ، ونشأتُ وأنا أرى لوالدي خزانة كتب قد خصَّصها بكامل
عنايته ، ولم يبخل عليها بوقته ولا بماله . فكنتُ أنمو وهي تنمو معي ،
فتآلفنا وتحايينا ، ومن ثمَّ تولَّد فيَّ الغرام بالكتب ، فبدأتُ أجمع ما تيسر
لي جمعه منها . وخطر لوالدي أن يُحَفِّظَنِي أنا وأخوى — مُعَلِّقَةً
« امرئ القيس » ، وكانت مهمة شاقة عليه وعلينا ، فقد كنا في سنِّ

لا نستطيع معها فهم بيت واحد منها ، واستطعنا بعد أشهر استظهارها جيّداً ، وعلم أستاذ اللغة العربية في المدرسة أننى أحفظ المعلّقة ، فطلب منى أن أعتلى المنصة ، وأنشد إخوانى التلاميذ إياها ، فأنشدتها ، فسرّ الأستاذ ، ومنحني الدرجة كاملة . ولم أعد ألوم والدى على خطته معنا .
ولما توفيت والدى ، ثم جدّتى لأبى ، عزّ على والدى البقاء فى منزل « درب سعادة » . وكانت صحته قد اعتلت ، فنصح له الأطباء بتبديل ذلك الوكر الرطب ، واختيار مسكن خلوى جاف ، فانتقلنا إلى « عين شمس » .
هناك قضيت أطيّب أيام صباى .

كان منزلنا الجديد ريفياً صميماً ، يتوسط خمسة أفدنة مقسمة خدائق ومزارع اعتنى والدى بتخطيطها وغرسها فى ذوق حسن ، فكنت ألعب وأمرح مع أخوى فى هذا المكان الفسيح وفّق هوانا . وكانت حياتنا فى هذه الفترة أقرب إلى حياة السداجة الريفية ، فقد كان المنزل صغيراً مبنياً باللبن ، مؤثثاً فى غير ترف ، وكانت لنا خيول نجوب على ظهورها صحراء « كفر جاموس » وحقول « المطرية » .

وكانت دارنا مهبطاً لكثير من علماء العصر وفضلائه ، أذكر منهم : الشيخ « محمد عبده » ، والشيخ « الشنقيطى » الكبير ، وهما من تلقى والدى العلم عنهم .

أما الشيخ « محمد عبده » ، فكثيراً ما ركب القطار معنا من « عين شمس » إلى « القاهرة » . وما زالت صورته ماثلة أمام عيني ، بوجهه الصبيح ، ولحيته الجميلة ، وجلسته التى يحفّ بها الوقار والجلال .

فكنت أصفى إلى حديثه المتزن إصفاء مسحور .

وأما « الشنقيطي » الكبير ، فقد صحبتُ مرةً والدى إلى منزله — ولعلها مرات — ولن أنسى في حياتي ذلك المنظر العجيب الذي شاهدته هناك : شيخ أسمر هزيل يتكلم العربية الفصيحة بلهجة مغربية . يجلس متربعاً ، في وسط حجرة تكاد تكون عارية من الأثاث ، فليس فيها إلا حصير وبعض وسائل منثورة هنا وهناك . وخلف الشيخ أسفار متراسة كأنها تلال ، وبحواره مَبْصَقة لا يستغنى عنها . ومن عجيب أمره إنه إذا ذكر اسم كتاب وأراد أن يريه زائره ، تحرك في مقعده حركة ، ثم مد ذراعه ، فإذا الكتاب في يده .

ولا يسعني أن أغفل في هذا المقام الإشارة إلى عمتي « السيدة عائشة التيمورية » الشاعرة ، فقد أدركتها في أخريات أيامها ، وإني لأذكر كيف كانوا يدخلوننا إليها في حجرتها الخاصة ، حيث تقضى شيخوختها . كانت تحتفل بنا ، وتغمرنا بعطفها وحنانها . إني لأتخيلها الآن وهي جالسة على مقعدها الفسيح تتراءى عليها المهابة ، فتتمثل لي صورة الملكة « فكتوريا » وهي متربعة على عرشها ، وكانت في ذلك الوقت بادية مترهلة ، لا تترك مقعدها إلا في النادر ، يحيط بها سرب من القطط مُعْظَمُهُ جاوز عهد الشباب ودخل في سن الكهولة ، ولكل قطعة حَشِيَّة تجلس عليها . ولما اشتدَّ عُودى واستطعتُ أن أتذوقَ الشعر وأفهمه ، قرأتُ الكثير من شعرها ، وحفظتُ مَرثِيَّتها الشهيرة لابنتها ، وكان إعجابي بنظمها كبيراً .

كان والدى كثيرا ما يأخذنا إلى الريف ، فنُمضي هناك إجازة الصيف . وكنت أحب الحياة فيه ، أقضى الوقت مع الفلاحين ، أحضر مجتمعاتهم وأستمع إلى أحاديثهم ، وأطرب لأغانهم ، وألعب بالكرة في بيادرهم . وعرفتُ هناك فيمن عرفت شخصية طريفة أُعجبتُ بها ، هى شخصية « الشيخ جمعة » خفير « جرن الأوسية » الذى كان موضوع أقصوصة لى فيما بعد .

وأذكر أن أول عمل أدبى عاجته ، هو إنشائي بمعونة شقيقى « محمد » صحيفة خاصة كنا نطبعها على « البالوظة » وننشر فيها أخبار المنزل والأصدقاء . وكان لنا مسرح يَتِيَّ تقيمهُ بين حين وحين فى أحد الأبياء بالمنزل ، لتمثل عليه مسرحيات ساذجة من تأليفنا ، كنا نضعها على غرار مسرحيات « سلامة حجازى » . وذَكَا ميلى للمطالعة ، فأقبلتُ على الروايات أشبع منها رغبتى ، وكان جُلُّها مترجماً مما لا قيمة فنية له . وأهدى إلى والدى مجلدا ضخما من « ألف ليلة » أصدرته مكتبة الهلال مهذباً ، فى طبعة مصورة أنيقة ، فتعلقتُ به ، وطالعتُه بأكمله ، وكنتُ أجمع من يرغب فى الإستماع من أهل المنزل ، وأعيد عليهم تلاوة ما قرأت . ولعل السر فى شغفى « بألف ليلة » فى تلك الحقبة هو مشابهتها « للحواديت » التى عشنا فى جوها رَدَحاً من أيام الطفولة والصبا ، فكأنى أعود بها إلى سذاجتى الأولى ، وكلُّنا منا يشعر بحنين عظيم إلى ذلك العهد . على أن الذى كان يعجبنا من « ألف ليلة » ليس مجرد شبهها « بالحواديت » ، بل اتساع أفق الخيال فيها ، وخِلاصة حوادثها . كل ذلك فى جو شرقى

ساحر ، يَمُتُّ إلى نفوسنا بأوثق الصلات ، جو طالما تمنينا أن نعيش فيه ،
فنشعر أننا نغاصر مع أبطاله ، نرتفع مع الرُّخَّ إلى السماء العليا ، ثم نهبط
إلى وادي الثعابين ، فمخارة الموتى ، فمدينة النُّحَّاس ، ثم نعود إلى الأهل
والأحباب نُثَقِّلُنا أ كداس من الذهب !

و« ألف ليلة » هو أحد كتب قليلة تُكَوِّن التراث الضئيل لثقافتنا
القصصية . وهذا التراث هو الذى يساعد القاصَّ منا على إنماء موهبة
التخيل فيه . والخيال هو الباعل الأساسى فى التأليف القصصى ، وبدونه
يكون القاصَّ عاجزا عن الخلق والابتكار ، فتخرج آثاره سطحية ،
لا تزيد قيمتها على تدوين الحوادث الجارية . والحق أن « ألف ليلة »
مفخرة القصة فى الأدب العربى ، وإن كان أصله ليس عربيا ، فقد جاءنا
من طريق الفُرس ، وهذا يعمل لنا قوة الخيال فيه ، ثم تناولته بعضُ
الأقلام فى العصور العربية بالزيادة والتغيير . فالعربى الأصيل لم يترك لنا
تراثا يُعْتَدُّ به فى القصة ، وإن كان قد ضرب بسهم وافر فى فنون الأدب
الأخرى ، كالشعر والخطابة والترسل ، فقد كانت فكرته البدوية ،
وحياته فى بقاع قاحلة متشابهة قلَّت فيها ألوان الطبيعة ، وقناعاته بالقليل
الضئيل من أسباب العيش — من العوامل التى أبعدته عن إذكاء خياله ،
وإطلاقه فى تناول أعماق الحياة وخوافيها .

وكان العصر الذى نعيش فيه قد تسلطت عليه النزعة المحافظة ،
فكان الكاتب يرجع غالبا فى كل ما يكتب إلى السلف الصالح ، يستعير
صبغتهم فى الكتابة ، وأساليبهم فى التعبير ، وكان حديث الخلافة

الإسلامية يعلأ الرعوس ، فكنا نرضى عن طيب خاطر بتبعيةتنا للدار
الخلافة ، ولا تفكر في تأليف وحدة وطنية لنا .

وإذا فكرنا في الوطنية لم تكن وطنيتنا إلا إحياء الأمبراطورية
العربية القديمة . في ذلك الجو عشنا وقتا ، لا نهتدى في طريقنا بغير هدى
الماضى . ولكننا أخذنا نسمع على أثر تتابع البعثات إلى ممالك « أوربة »
وازدیاد أسباب الاتصال بيننا وبين العالم المتحضر ، نعمة جديدة كانت
تدعو إلى التجديد في اللغة والأدب والسياسة والدين ، ولكنها قوبلت
من جهة المعاصرين بالإستنكار . وكان زعماء هذه النهضة : « سعد
زغلول » و « محمد عبده » و « قاسم أمين » و « لطفى السيد » وتلاميذه
فيما بعد . فقد نبه « سعد » الأذهان إلى القومية المصرية ، وحددها
تحديدا أخرجها عن زخارف الخلافة التركية ، وأمانى الأمبراطورية
العربية . ونفى « محمد عبده » عن الدين ما كان عالقا به من الأوهام ، فأظهره
على فطرته السمحة . واقتحم « قاسم أمين » ميدان المرأة ، وأخذ يمزق
النقاب عن وجهها ، ويخرجها من قاعات « ألف ليلة » حيث يعبق
البخور ، إلى ميدان النور والحياة والعمل .

ولما تهذب ذوقى في المطالعة أقبلت بشغف على قراءة « المنفلوطى »
فقد كانت نزعتة « الرومانسية » الحلوة تملك على مشاعرى ، وأسلوبه
السلس يسحرنى . وكل إنسان فى أوج شبابه تطغى عليه نزعة
« الرومانسية » والموسيقى ، فيصبح شاعرا ، ولو بغير قافية ؛ وقد يكون
أيضا شاعرا بلا لسان !

ولما كان شقيقى الأكبر « إسماعيل » يحْكُم مكانه من الأسرة قد اضطلع بزعامة المنزل ، وأخذ على عاتقه القيام بما تقرضه هذه الزعامة من انجاء إلى العمليات ومحافظة على تقاليد الأسرة وما يتبعها من رسميات ، وجدتُ الفرصة سانحة للتخلف فى ذلك الميدان ، واستطعت أن أتحكم فى أوقات فراغى إلى حد كبير ، أصرفها — وَفَّقَ مِيولى — بعيداً عن الحياة العملية ومظاهر الرسميات ، فأشبعْتُ ميلى إلى المطالعة .

وكان نصيب الشعر وافرًا فى مطالعاتى هذه ، الشعر بنوعيه : العربى والإفرنجى ، وخاصة شعر المعاصرين . وكنت أفضِّل منه غالباً ما كان خيالياً مغرقاً فى الخيال . وكانت المدرسة الأمريكية التى أنشأها إخواننا اللبنايون والسوريون فى المهجَر ، قد بسطت نفوذها على الأدب المصرى ، فأخذتُ بها ، وشغفت كبير الشغف بزعيمها « جبران » ، ذلك الشاعر الرمزيّ المغرق فى الرمزية ، وكانت « الأجنحة المتكسرة » أول كتاب حظى منى بأوفى حب وتقدير ، فتأثرتُ به أولى كتاباتى ، وجأها من الشعر المنشور ، ذى النزعة الرومانسية . وكان « لجبران » وجماعته مجلة تُدعى « الفنون » ، قرأنا فيها حقاً لونا جديداً من الأدب ، الأدب الذى يحاول أن يخرج عن نطاق التقليد فى الفكرة والقالب . هذا الأدب كان يستمد وحيه من الغرب ، وقد استحدث له أسلوباً جديداً خرج فيه عن بعض قواعد اللغة ، ونهج المنهج الإفرنجى . فاستعذبتنا طرافته وشذوذه عن المألوف . ولا جدال فى أن ذلك الأدب على عِلَّاته ، كان يحوى عنصر التجديد ، فلا يمكننا إنكار فضله ، فهو دم جديد جرى فى عروق أدبنا .

المحافظ فدبَّت فيه حياة جديدة ، وكان للقصة نصيب لا يستهان به في هذا الأدب « المتأمر ك » ، والقصة — حتى ذلك العهد — بضاعة تكاد تكون غريبة عنا ، فتأثير هذه المدرسة في تلك الناحية من أدبنا ظاهر ملموس . وأخذ نفوذ هذه المدرسة يتضاءل على مرّ الأعوام ؛ إذ كثرت البعث المصرية إلى « أوربة » . فلما عاد أعضاؤها إلى مصر ، وأخذوا يبشرون بمبادئ جديدة في كل فرع من فروع حياتنا ، ومنها الأدب ، فكانت بداية نهضة جديدة ، نهضة لها خطرها . وكنا على أبواب الحرب ، وعاد شقيقى « محمد » من « أوربة » محملاً بشتى الآراء الجريئة . كان يتحدث بها إلى ، فاستقبلها بها طفتين لا تخلوان من تفاوت : عاطفة الحذر ، وعاطفة الإعجاب . هذه الآراء كانت واعدة نزعاً ثورية ، قوامها وجود القديم ولكن حدتها أخذت تهدأ على توالى الأيام ، ومن ثم اتخذت طريقها الطبيعى فى التطور . والأمر الذى كان يشغل فكر أخى ، ويرغب فى تحقيقه ، هو إنشاء أدب مصرى مبتكر يستملى وحيد من دخيلة نفوسنا وصميم بنيتنا .

ويحسن هنا أن أذكر حادثاً مهماً أعتقد أنه كان نقطة تحوّل فى حياتى الأدبية ، إذ وجه مجرى هذه الحياة وجهة معينة . أصبْتُ بمرض « التيفوئيد » وكنت إذ ذاك فى العشرين من عمرى — وكانت وطأة المرض شديدة على ، فازمت الفراش ثلاثة أشهر قضيتها فى ألوان شتى من التفكير ، وأخلط من الأحلام ، واستطعت أن أهضم الكثير من الآراء التى تلقيتها من أخى ، أو استمددتها مما قرأته من الكتب . فلما أبللت من

مرضى ، وأردتُ استئناف دراستي العالية — وقد كنتُ بدأتُها فعلاً —
حال دون ذلك ضعف بنيتي ، فعشتُ فترةً من الزمن متعطلاً ، وأطلقتُ
لنفسى عِنان الحرية — شيئاً ما — فخرجتُ عن الكثير مما كان يقيّدنى
من تحفّظات الأسرة . وشعرتُ باشتداد ميلى للأدب ، فرسّمتُ له دراسة
شبهَ منظّمة ، وخصّصْتُ له وقتاً معيّناً من وقتى ، فكأننى قد أردتُ
بهذه الخطة استكمال النقص الذى لحقنى من انقطاع دراستى العليا . فما
لا ريب فيه أن حادث المرض كان بداية تطور جديد فى حياتى الأدبية ،
نقلنى من دور التردد إلى دور اليقين ، ومن دور الإلحاح والهوادة فى التحصيل
إلى دور الجِدِّ فيه والإستيعاب . وما إن مضيت فى ذلك حتى كان شقيقى
قد اقتحم المسرح ، إذ كان ميدانه الأكبر ، فألّفَ فيه بالعاميّة ، وعالج
موضوعات مستخلصة من حياتنا المصرية فى فنٍّ جديد ، امتاز بوصف
مُبَدّع ، وتحليل دقيق ، وأسلوب جذاب . ومارس كتابة القصة ، فاستحدث
طريقة تكاد تكون غير مألوفة فى أدبنا فى ذلك الوقت . ونظم الشعر
فترجم فيه عن إحساسه المرهف . وألّفَ فى النقد المسرحى ، فابتدع لونا
جديداً مرّحاً ، فيه هزل وفيه جد . وعلى الجملة كان أدب « محمد تيمور »
أدباً مبتكراً مادّته الحياة المصرية ، والنفس المصرية . هذا على حين أن
والدى « أحمد تيمور » كان يعمل ويؤلف فى ميدان آخر — ميدان اللغة
والتاريخ والأدب القديم ، لا يبرح خزائنه إلا لما ، يعيش فى جوِّ
المجموعات وحوادث العهد الغابر ، وقد يقضى الساعات الطوال بل الأيام
فى الكشف عن لفظ أو تحقيق خبر .

في ذلك الوقت كنت أستنير في مطالعاتي بهداية شقيقى ، فنصح لى فيما
نصح بأن أطلع « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى ، ورواية « زينب »
للدكتور هيكمل ، فرأيتُ فيهما لونا يختلف عن اللون الرمضى الرومانسى
الذى كنت غارقا فيه ، لونا واقعيًا يهبط بالقارئ من سماء الخيال العليا
حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب — إلى الأرض التى نحيا عليها
حيث نرى الناس بشرا مثلنا ، على فطرتهم التى خَلَقُوا عليها .

و « حديث عيسى بن هشام » يعدّ في نظرى المرحلة الثانية للقصة
فى الأدب العربى بعد « ألف ليلة » ، فقد نحا فيه مؤلفه منحى عصريًا ،
نخياله واسع ، وسرده ممتع ، وشخصياته لا تخلو من إحكام فى الوضع . وهو
وإن كان قد تقيّد بعض التقيّد بالمقامات فى الأسلوب والتأليف ، فقد
امتاز بأنه أول محاولة ناجحة لتمصير الأدب ، وصَبْغُه باللون المحلّى الزاهى ،
مع سموه عن الواقعيّة الساذجة .

أما رواية « زينب » فهى فيما أرى تعدّ أول عمل أدبى فى القصة
المصرية ، يتضمن العناصر الأساسية للقصة الحديثة كما نعرفها اليوم .
وامتدح لى شقيقى غير مرة « موبسان » الكاتب الأقصوصى الفرنسى
فبدأت أطلعه ، وما كدت أقرأ له مجموعة حتى فُتِنْتُ به ، وتابعتُ قراءتى
إياه فى شغف عظيم . واتسعت مطالعائى فيما بعد فى القصص الأوربى
وتشعبت ، ولكننى حتى اليوم ما زلت محتفظاً « لموبسان » بالمكان
الأول فى نفسى ، فهو عندى زعيم الأقصوصة الأكبر . وفنّ « موبسان »
فى نظرى فن كامل توافرت فيه كل العناصر اللازمة لبناء قصة قوية ، من

حيث عرضُ الموضوع ومعالجته ، وتحليل شخصياته ، وتسلسل الحوادث وخواتمها . كل ذلك في وضوح واتزان . ولا أذكر أنى قرأتُ له قطعة لم تهزنى .

ثم انتقلتُ بعد ذلك إلى القصص الروسى ، وقرأتُ « لتشيوخوف » و « تورجنيف » ومن ماثلهما ، فرأيتُ تأثير « موبسان » واضحاً في بعض إنتاجهم . ويمتاز القصص الروسى بعنصرى الصدق والبساطة ، فما القصة الروسية غير قطعة منتزعة من نفس صاحبها ومن مشاهداته ، يعرضها في غير كلفة ولا زخرف ، وقد يقرأ الإنسان أقصوصة من هذه الأقاصيص فلا يرى فيها موضوعاً تاماً له بدايته ونهايته ، بل يرى صفحة ساذجة من الحياة ، ولكن تتراءى له خلف هذه السذاجة الظاهرة صفحات من صميم المأسى البشرية . لذلك نعتقد أن قوة القصة ليست في حوادثها الشائرة الفاجعة ، ولا في مشوّقاتها المبتذلة التى يتعمد القاصّ الضعيف أن يجتلبها ليستر ضعفه وراءها ، بل إن قوتها الحقة في بساطتها وصدقها ، وصوغها في قالب فنى رفيع .

وكانت الحرب قد انتهت ، وبانتهائها ثارت فينا نزعة القومية ، وأدركنا صلاح المبادئ التى نادى بها « سعد زغلول » وصحابته ، واتسع نطاق « المصرية » فطنى على كل شيء في حياتنا ، سواء أكان في السياسة والاقتصاد ، أم في الأدب والاجتماع .

أما من الناحية السياسية ، فقد أدركنا كيف أن الدولة العثمانية التى كنا ننظر إليها زعيمة ومنقذة ، قد جعلت تنهار وينكشف لنا ضعفها ،

فعمدت إلينا الثقة بنفوسنا ، ورأينا من مبادئ « ولسن » الأربعة عشر ما يحقق لنا حياة مستقلة سعيدة لا تبعيَّة فيها ولا خضوع . فاعترطنا أن نعمل لهذا الاستقلال ، معتمدين في ذلك على أنفسنا وحدها .

وأما من الناحية الاقتصادية ، فقد دفعتنا الحاجة إلى سد الثَّغْرَةِ التي أوسعناها الحرب في وارداتنا الأجنبيَّة ، فَنَشِطَتْ بعض الصناعات الوطنيَّة وازدهرت ، وبدأنا نحسُّ لذة الفوز في ذلك المضمار ، فطالبنا بالمزيد . وقد تأكَّد لنا أن في مقدورنا السيطرة على صناعتنا إذا توافرت لدينا الجهود الصادقة . ومن ثَمَّ تأسَّس « بنك مصر » وأخذتْ شركاته تُولد ويشتدُّ عودها .

أما من الناحية الاجتماعيَّة ، فقد شاهدنا كيف أن الحرب في « أوربة » قد قلبت الأوضاع ، فأنشأت نظماً وأوضاعاً فرضتها فرض المتحكِّم الغلاب . فلحقنا منها الشيء الكثير ، ورأينا أن الانقلاب الذي كان يقدر له « قاسم أمين » عشرات السنين ، يتم في أعوام لا تتجاوز عدَّ أصابع اليد . أما الأدب ، فقد اصطبغ باللون المحليِّ الصارخ ، حتى أغانينا الشعبيَّة غلبت عليها هذه الصَّبْغَةُ . ورأينا أنفسنا نتجه نحو الواقع ، فأصبحنا عمليين بعد أن كنا شعراء خياليين . وشاع المسرح المحليُّ ، وبخاصة الهزليُّ منه ، وانتشر الاقتباس ، وبدأ الابتكار ، على حين تضاءلت الترجمة . في هذا الجو كتب « محمد تيمور » أقاصيصه : « ما تراه العيون » وقد نما فيها نحو المذهب الواقعيِّ ، وصوِّر فيها مناظر مختلفة من بيئتنا المصريَّة وأشخاصها ، صاغها أقاصيص جمعت بين فن مبتكر وأسلوب رشيق

سهل ، فأعجبتُ بها إعجاباً دعاني إلى أن أولف على غرارها ، فكتبتُ
باكورتى فى القصة : « الشيخ جمعة » ، ثم أردفتُها بأقصوصة تُسمى :
« يحفظ بالبوَسطة » . وكنتُ قد أهملتُ الشعر المنثور ، فاندفعت أكتب
مترسماً فى كتابتى المذهب الواقعى ، وذلك بتأثير الجوِّ الجديد الذى نعيش
فيه ، وما كنتُ أقرؤه من قصص على هذا المذهب . وكنتُ لا أحفل
بالأسلوب احتفالى بتصوير الواقع .

وفجئنى القدر وقتئذ فى شقيقى « محمد » وهو فى ميعة صباه ، وشرخ
شبابه ، وتآلق أمانيه . وشعرتُ بعد موته بانتهيار أمله الكبير فى إنشاء
أدب مصرى جديد ، كثيراً ما كان يحدثنى عنه فى حماس ويقين . ودهمّنى
اليأس ، ورأيتُ نفسى أضعف من أن أخلفه فيما كان يبشّر به ، فخلدتُ
إلى السكينة ، وقد توقعتُ الفشل . . . وتوالت الأيام ، وبدأت عجلة
الحياة القاسية تسير فى طريقها ، لا يعنّيه من أمور العالم إلا استكمال
دورتها ، فأخذتُ الجروح تندمل ، وإن كانت الذكرى باقية بقاء الروح
فى الجسد .

ورأيتُ نفسى قد نشطتُ للعمل ، وجمعتُ من ضعفى قوة تقدمتُ
بها فى ميدان التأليف ، وقد انطلقتُ أنفض عن اليأس ، وأقصى شبح
الفشل ، معتمداً على نفسى ، مهتدياً بهدى شقيقى الراحل . فكنتُ أعمل
وكأنى مندفع يباعث من « واعيتى الباطنة » إلى استكمال ما كانت تصبو
نفس شقيقى إليه لو أتيحت له الحياة . وكنتُ أحس أننى بهذا العمل
أرضى رُوح شقيقى ، وأقرؤها واجب التحية والإجلال .

وما إن أقبل عام ١٩٢٥ م حتى رأيت أنه قد تجمّع عندي مادة من القصص يصحّ إظهارها في كتاب ، فطبعتُ : « الشيخ جمعة وقصص أخرى » ثم أردفتُه بغيره .

ولما هدأت نزعة المصرية الحادّة بألوانها المحلية الصارخة ، واستقرتْ الأمور في نصابها الطبيعيّ ، تطورتْ نظرتي إلى الأدب ، فكانت في طورها الجديد أوسع وأعمق .

وسافرتُ في تلك الفترة إلى « أوربة » . ومكثتُ بها حيناً يزيد على العامين ، قضيت معظمه في « سويسرا » . فتفرغتُ للقراءة ، واتصلتُ بالأدب الأوربيّ الحديث أقرب اتصال . وطالعتُ أثناء إقامتي هناك مرثيات ومناظر هزّت نفسي ، وتغلّغتُ في صميم قلبي . كما أن خبرتي بالحياة ، ومعرفتي لها ، قد اتسعت وتنوعت . فكان لهذه الحياة الجديدة التي عشتُها هناك أثر لا يُنكر في تطورِ فكري ، ورأيتُ على ضوء مطالعاتي الجديدة وفهمي لنظريات الأدب العالميّ أن اللون المحليّ ليس كل شيء ، بل هو بعض الشيء . وما الأدب الكبير إلا أن يولي الإنسان وجهه شطرَ النفس البشرية . فحولتُ اتجاهاً نحو هذه الوجهة ، محاولاً التقدم فيها ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً . وإني الآن أعتقد أن الأديب يجب ألا يقيّد نفسه في التأليف بمذهب يترسّسه ، فالأدب ميدان فسيح ، على الكاتب أن يمرّح فيه طليقاً . فليرسل رُوحه على سجيتها ، فما المذاهب الأدبية إلا من صنّع النقاد لا من صنّع الأدباء ، وضموها لينظموا بها قنهم ، ويخضعوه لقوانين منطقية .

ولا أستطيع أن أختم هذه العجالة قبل أن أتحدث عن أمر أضعه
في مقدمة الأمور التي أثرت وما زالت تؤثر في مجرى حياتي ، أعني به
صحتي . فقد تألبت على الأمراض منذ الطفولة . وأذكر بالخير طبيب
الأول ، فقد كان يجمع بين الطب والطببة ، أي بين العلم والصدقة .
فلم يكن يداوى الجسم وحده ، بل يداوى معه النفس . كان طبيب الطفولة
هذا رجلاً نحيفاً ذا طربوش أفطس ووجه أسمر مهزول . ولا أدري لماذا
يخطرُ بيالي كلما شاهدتُ صورة « دون كيشوت » هذا الطبيب ،
أو بالأحرى هذا الصديق . كان يحضر لزيارتنا ويمكث معنا الساعات
الطوال يجرّ عنا الدواء ويتجرّعه معنا ، وهو يرّوي لنا القصص والنوادر .
منذ الصغر والعلل تتردد عليّ ، حتى ألفتها الآن ، وأصبحت غير
غريبة عني . منذ سنين طويلة وأنا في رقابة الطب في مأكل ومشربي ،
وفي نومي ويقظتي . سنّ لي هذا الجبار قوانين لا أستطيع الخروج عليها ،
فأنا أعيش من مرضي في قفص ، أنظر إلى الأصحاء من الناس يستمتعون
بكامل حريتهم ، فأغبطهم ، وتنالى حسرة أليمة .

وهكذا كنت أحسّ في أعماق نفسي بنقص يحجزني عن
الاستمتاع بما ينعم به غيري . هذا النقص دفعني وما زال يدفعني إلى أن
أستكمل في الخيال ما عجزت عن إتيانه في الواقع . ومع ضعف صحتي ،
وما نالني من مرض ، أجد نفسي قد تخطيت الأربعين وما زلت حياً
أرزق ، فأعجب لذلك وأقول :

« لِسَّه لَكَ عُمر ! »

شِمْكَاءُ الرُّوحِ

أخى المؤمن :

قُصَارَى ما يطمح إليه فؤادك أن تكون سعيدا . وإنك لتسعى
جاهداً غير وانٍ ، باذلاً كلَّ رتخص وغال ، لا قبلة لك إلا أن تحظى
بتلك السعادة المنشودة . . .

ولكنك تظلم نفسك إن عددت السعادة فيما يترأى لك من
عروض الحياة ، كالغنى والجاه . . . فهذه العروض التى يستعصى عليك
منالها ، التى تحسب الخير أجمع فيها ، ربما كانت هى باعثة الشقاء ،
ومدعاة العذاب .

وأنت فقد تجاهد وتجاد ، حتى تبلغ مأربك من هذه العروض ،
وما هى إلا أن يتجلى لك ما خفى عنك ، فتعرف بعد لأي أنك كنت
مخدوعا تظنُّ السراب ماء ، وأن الغنى والجاه وما إليهما من مظاهر الحياة ،
إنما هو زيف باطل ، وزُخرف زائل . . .

ويوم تقف على القمة ، بعد أن صعدت فى السلم الذى استهواك ،
ترى أنك لم تظفر من جوهر السعادة بطائل ، وأن من حولك غيوم
الحياة وظلماتها مطبقة عليك ، وأنت لم تنكشف عنك البأساء والضُرر .

ولو سَمَتْ نَفْسُكَ إِلَى أَنْ تَسْتَكْنِهَ سِرَّ ذَلِكَ ، لَعَلَّتْ عَلَى يَقِينٍ أَنْ
المَظْهَرِ قَدْ غَرَّكَ ، فَتَقَفَوْتَ أَثَرَهُ ، وَاسْتَرْسَلْتَ فِي طَلَبِهِ ، فَلَمْ تُعْنِ
بِالْمُخْبَرِ وَاللُّبَابِ .

أَخِي الْمُؤْمِنُ :

إِنَّ لِلسَّعَادَةِ لِمَنْبَعًا فَيَاضًا هُوَ « الرُّوح » .

فَمَنْ تَنَكَّبَ عَنْهُ ، لَمْ يَظْفَرْ بِرَشْفَةٍ مِنْهُ ، وَلَوْ أَدَلَّتْ إِلَيْهِ السَّمَاءُ
بِأَسْبَابٍ ، وَمَنْ فَطَّنَ لَهُ بَلَغَ السَّعَادَةِ مِنْ أَقْرَبِ بَابٍ .

وَلَا تَبْلُغِ الرُّوحُ هَذَا الْمَبْلَغَ مِنْ إِسْعَادِ الْإِنْسَانِ إِلَّا إِذَا تَوَافَرَ لَهَا الصِّفَاءُ
وَالنَّقَاءُ ، فَإِذَا هِيَ تَشِفُّ وَتُخَفِّفُ ، وَإِذَا هِيَ تَسْمُو إِلَى آفَاقٍ عُلوِيَّةٍ تَرْفَعُ
عَنِ الشَّوَابِ وَالْأُدْرَانِ .

فَهَلْ لِي أَنْ أَكْشِفَكَ بِمَا أَسْمِيهِ « تَجْرِبَةً » أَوْ « وَصْفَةً » تُنِيلُكَ
مَا تَرِيدُهُ لِرُوحِكَ مِنْ صِفَاءٍ وَتَطَهُّرٍ ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى شِفَاءِ النَّفْسِ ، وَتَتَوَفَّرَ
لَكَ السَّعَادَةُ الْحَقَّةُ ؟

لَسْتُ أَفْجُوُكَ بِمَا يَرْمُوُكَ سَمَاعُهُ ، أَوْ يُعْيِيكَ فَهْمُهُ ، أَوْ يَتَعَاصَى
عَلَيْكَ إِنْقَاذُهُ

إِنَّهَا وَسِيلَةٌ بِالْغَةِ الشَّيُوعِ ، قَرِيبَةٌ التَّنَاوُلِ ، يَمْدُ أَنَّ النَّاسَ قَلَمًا يَلْتَفِتُونَ
إِلَى سِرِّهَا الْعَظِيمِ ، وَأَثَرِهَا النَّاجِعِ ، فَهَمٌّ لَا يَتَخَذُونَهَا عَلَى النَحْوِ الَّذِي
يُحَقِّقُ تِلْكَ الْغَايَةَ الْغَالِيَةَ .

أخى المؤمن :

نُصْحِي إِيْلِكَ أَنْ تَضَعَ مَصْحَفًا فَوْقَ وَسَادِكَ ، لَا تَتَّخِذْهُ تَمِيمَةً مِنْ التَّمَائِمِ ، وَلَا تَعْوِذَةً مِنَ التَّعَاوِيزِ . . . وَإِنَّمَا تَتَّخِذْهُ نَبْعًا فَيَاضًا تَسْتَقِي مِنْهُ لِرُوحِكَ صَفَاءً ، وَلِنَفْسِكَ شِفَاءً !

لَيْسَ كُنْ مِنْ دَأْبِكَ فِي إِصْبَاحِكَ أَلَّا تَقَعَ عَيْنُكَ أَوَّلَ مَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى هَذَا الْكِتَابِ الْخَالِدِ ، فَارْتَلْ مِنْهُ مَا تيسَّرُ ، وَامْلَأْ سَمْعَكَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، تُتِمِّعْكَ بِسِحْرِ الْبَيَانِ ، وَرَوْعَةِ الْإِيْقَاعِ . وَاتْرِكْ حِكْمَتَهَا الْبَالِغَةَ تَسْرَى فِي وَلِيْجَةِ نَفْسِكَ ، فَتُضَيِّءُ مِنْ جَوَانِبِهَا مَا أَظْلَمَ ، وَتَجْلُو مِنْهَا مَا صَدَى . فَإِنَّكَ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَحْسَنَ رُوحَكَ قَدْ انْسَكَبَ عَلَيْهَا فَيْضُ يَكْفُلُ لَهَا الطُّهْرَ ، وَيُشِيرُ فِيهَا الْإِتْعَاشَ .

أَنْعِمُ بِذَلِكَ بِدَءَ الْنَهَارِ الْوَضَّاحِ !

لَتُصْبِحَنَّ وَقَدْ شَاعَ فِي أَسَارِيرِكَ بِشْرٌ ، وَامْتَلَأَتْ نَفْسُكَ بِالثِّقَةِ . وَلَتَقْبَلَنَّ عَلَى عَمَلِكَ نَاشِطًا فِي تَيْمُنٍ وَانْشِرَاحَ .

وَلَيْسَ كُنْ كَذَلِكَ مِنْ دَأْبِكَ فِي لَيْلِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَصْحَفُ آخِرَ مَا تَقَعَ عَلَيْهِ عَيْنَاكَ ، قَبْلَ أَنْ تَسْلِمَ أَجْفَانُهُمَا لِلْمَنَامِ . فَارْتَلْ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَا وَسِعَكَ أَنْ تَرْتَلَ ، تَطْهِيْرًا لِنَفْسِكَ مِمَّا عَلِقَ بِهَا مِنْ غُبَارِ يَوْمِكَ . وَنَمْ عَلَى وَقَعِ تِلْكَ الْأَهَازِيْجِ الْعُلُوِيَّةِ ، سَابِحًا فِي أَحْلَامِ طَيِّبَةٍ كُلُّهَا رَوْحٌ وَرِيْحَانٌ .

إِعْمَلْ بِتِلْكَ السَّنَةِ لَا تَنْحَرْفْ عَنْهَا يَوْمًا ، وَاتَّخِذْهَا لَكَ مِنْهَجًا وَإِمَامًا ، وَانْظُرْ كَيْفَ تَصِيرُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَكَيْفَ يَتَكَامَلُ لَكَ حِطُّكَ مِنْ

سعادة النفس ، ونعيم الرُّوح .

ولا تنسَ هذا القرآن العظيم في غُدُوٍّ ولا رواحٍ . . . فإنَّ أَلَمَّتْ
نازلة ، أو حَزَبَ أمر ، فاجعل من آية لك مَفْزَعًا تستظل فيه من حرِّ
ما تجدد ، وإنك لشاعر من ساعتك بأنَّ الغمَّة لا سلطان لها عليك ، وأنَّ
لك جَلَدًا لا يهين ، وعزيمة لا تخور .

أخي المؤمن :

مزيةٌ جليلة لك أن يكون ذلك الذخر الخالد من كلام الله تُراثًا
دائمًا منك ، تلتمس فيه علاجَ نفسك ، وصفاءَ رُوحِكَ ، وتمتلك به ناصية
السعادة بمعناها الأسمى . ذلك لأن هذا القرآن الكريم ينأى بك عن
مكاره الأرض ، ليصلَ بينك وبين السماء !

إلى شَلَّالَاتٍ « نِيَا جَارَا »

الحجُّ إلى المواطن الفريدة مختلفٌ ألوانه .

فمنه حجٌّ دينيٌّ إلى البقاع المقدسة ، يلتبس المرء فيها شفاء النفس ،
وصفاء الروح .

ومنه حجٌّ رياضيٌّ إلى ميادين الإرتياض ، يطلب المرء فيها حقَّ
بدنه عليه ، ويتغنى الزهدة والسلوى .

ومنه حجٌّ ثقافيٌّ إلى دُور العلم ، ومجامع الرأي ، ومعاهد الفكر ،
يتزوّد فيها المرء زاد المعرفة ، ويقتبس نور الحكمة .

ومن الحجج أنواع تعزُّ على الإحصاء ، فيها للنفوس غذاء ، وللأذهان
متاع .

فأما الحجُّ إلى شَلَّالَاتٍ « نِيَا جَارَا » فهو فيما أرى حجٌّ شاملٌ يحتوى
دواعي الحجِّ ومزاياه جميعاً . . .

فيه من الدين قبسة ، ومن الرياضة نفحة ، ومن العلم طرّف .

وإني لأسميه حجّاً إلى موطن الجمال الأصيل ، ومظهره الأسمى . إذ أن

الجمال هو غاية المثل العليا في صحة الأبدان والأذهان والأرواح .

يقف الصوفي المتعبد أمام شَلَّالَاتٍ « نِيَا جَارَا » ، فيستشعر إزاءها

رُوحَ اللَّهِ ، وَيُؤْنِسُ مِنْ جَانِبِهَا قَبَسًا مِنْ نَوْرِهِ الْأَزَلِيِّ ، وَلَا يَلْبِثُ أَنْ تَتَجَلَّى لَهُ عَظَمَةُ الْخَالِقِ ، وَضَائِلَةُ الْمَخْلُوقِ .

وَيُسَرِّحُ الْبَاحِثَ نَظْرَهُ فِي تِلْكَ الْبَقْعَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الدُّنْيَا الْجَدِيدَةِ ، فَيَرَى ذَلِكَ الْعُبابَ تَتَلَاظِمُ أَثْبَاجُهُ ، وَتَتَخَبَّطُ أَمْوَاجُهُ ، وَكَأَنَّ هَدِيرَهُ الصَّخَّابَ يَقْصُصُ عَلَى السَّكُونِ أَحْدَاثَ تِلْكَ الْبَقْعَةِ الَّتِي شَهِدَتْ هُنُودَهَا الْحُمْرَ مُقِيمِينَ عَلَى أَرْبَاضِهَا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ هَذِهِ الشَّلَالَاتِ ، وَيَقْدُسُونَ اسْمَهَا ، وَيَنْصَبُونَهَا إِلَهًا جَبَّارًا لَهُ الطَّوْعُ وَالْإِذْعَانُ ، فَلَا يَفُوتُهُمْ فِي كُلِّ عَامٍ أَنْ يَزْدَلِفُوا إِلَيْهِ بِقُرْبَانٍ نَفِيسٍ ، عَذْرَاءٍ مِنْ رَبَّاتِ الْفِتْنَةِ وَالسَّحَرِ ، يُلْقُونَ بِهَا إِلَيْهِ ، لِيُسَبِّغَ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتَ الرِّضَا وَالْغُفْرَانِ .

وَإِنْ رُؤَادُ الطَّبِيعَةِ لِيَشْهَدُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّلَالَاتِ مَنَظَرًا عَجَبًا ، فَيَتَسَاءَلُونَ : كَيْفَ انْخَسَفَتْ الْأَرْضُ فِي هَذِهِ الْبَقْعَةِ ؟ وَكَيْفَ تَدْفَقُ فِيهَا الْمَاءُ ، فَرَّاحٌ يَشُقُّهَا شَقًّا ، وَيُخَلِّفُ فِيهَا ضُرُوبًا مِنَ الْجَزَائِرِ وَالْبَطَاطِيحِ وَالْوَهَادِ ؟

وَأَمَّا هُوَاةُ الرِّيَاضَةِ وَطُلَّابُهَا فَحَسْبُهُمْ مِنْ هَذِهِ الشَّلَالَاتِ رَوْعَةٌ الْمَشَاهِدِ ، وَطِيبُ الْأَهْوِيَةِ ، وَسَكِينَةُ الْمَكَانِ .

تَنَاهَى ذَلِكَ إِلَى أَسْمَاعِنَا ، وَنَحْنُ فِي « نِيُيُورِك » . . . فَهَاجَ أَشْوَاقُنَا إِلَى الرَّحِيلِ ، قَصْدًا إِلَى الشَّلَالَاتِ .

وَمَا إِنْ بَنَيْنَا عَزْمَنَا عَلَى السَّفَرِ حَتَّى أَعَدَدْنَا الْعُدَّةَ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَخَرَجْنَا عِنْدَ انْبِلَاجِ الصَّبْحِ إِلَى « مَحْطَةِ سَنْتِرَال تَرْمَفَال » فِي قَلْبِ الْمَدِينَةِ وَأَنْتَ إِذَا شَارَفْتَ الْمَحْطَةَ فَامْحَتِ بِنَاءُهَا السَّامِقَ ، حَسِبْتَ أَنَّكَ

دألف إليه ليحتويك قطار الرحيل ، ولكن شدَّ مَا يَرُوعُكَ أن تعلم أن
هذا البناء على سُمُوقه ونخامته ليس إلا تاجاً للمحطة يعتلي رأسها .
وأما المحطة نفسها فهي سارية في أطباق الأرض ، ضاربة في أعماقها .
تهبط إليها ، فإذا أنت تتحدَّر في ناطحة سحابٍ مقلوبة !

ما أجدر هذه المحطة بأن تُسمَّى مدينةً وحدَّها ، فهي طبقات بعضها
تحت بعض ، لكل طبقة طُرقات وأبهاء وِرْدَاهُ ، وفي كل طبقة متاجر
ومطاعم وأندية ، ولكل طبقة مسالك تغدو فيها قطاراتها وتروح . وعلى
ذلك كله طابع من التناسق والنظام يأخذ بالألباب !

تستضيفك هذه المدينة ، فيروِّقك أن تجوبَ فيها ، وترحلَ بين
جوانبها ، رحلةً ربما صرفتك عن رحلتك المقصودة .

وأخيراً لا تجد بداً من أن تستهديَ إلى قطارك ، فإذا دُلِّتَ عليه
دخلته في سلامة الله . ويتحرك القطار كأنه يسبر غور الأرض ، فتحس به
يشقُّ جوفها شقاً ، ويلتمس له من ضيقها مخرجاً .

ويبلغ القطار مآربه ، فيخرج على ظهر الأرض ، ميمماً صوب الشمال
تستقبله أفواج الضوء .

ويعضى القطار لطيفته ، وهو ما برح في مناكب « نيويورك » تلك
المدينة الشاسعة التي تبسط ذراعيها ، فتحتضن المرامي الفساح .

وإنه ليخيِّلُ إليك أن القطار كما أمعن ينتهب الطريق ، أمعنت
المدينة في مجاراته ، فكأنما هما يتسابقان ، كفرسى رهان ! . . .

وبعد لأي يستخلص القطار أذياله من مخالب تلك المدينة التي

تَمْتَدُّ مَيَامِنُهَا وَمَيَاسِرُهَا ، حَتَّى لَتَكَادَ لَا تَدَعُ لغيرها شَيْبَرًا مِنَ المعمور .
مَا ظَنُّكَ بِعَشْرِ سَاعَاتٍ فِي الْقِطَارِ بَيْنَ « نِيُويُورْكَ » وَمَدِينَةِ
الشَّلَالَاتِ ؟ إِنَّكَ لِحَاسِبٍ لَهَا حَسَابًا عَسِيرًا مِنَ المَلَالَةِ وَالضَّجَرِ ، وَلَكِنَّكَ
تَدْهَشُ إِذْ تَتَوَاصَلُ بِكَ هَذِهِ السَّاعَاتُ ، وَأَنْتَ رَافِيٌّ غَيْرُ مَلُولٍ
وَلَا مُتَضَجِّرٍ . وَرَبَّمَا كَانَ مَرَدُّ ذَلِكَ إِلَى مَا يَتَوَافَرُ فِي الْقِطَارِ مِنْ جِلْسَةٍ
رَخِيَّةٍ ، وَأَسْبَابٍ لِلرَّاحَةِ كَافِلَةٍ ، وَمَا تُطَالِعُكَ بِهِ النَافِذَةُ مِنْ مَشَاهِدِ المَدَائِنِ
الصَّنَاعِيَةِ الزَاخِرَةِ بِالْحَرَكَةِ وَالنَّشَاطِ .

وَإِنْ الْقِطَارُ لَيُسَلِّمُكَ إِلَى مَدِينَةِ الشَّلَالَاتِ ، وَقَدْ أَذْبَرَ عَنْهَا النَّهَارَ ،
فَمَا إِنْ تَبَارَحَ المَحْطَةُ إِلَى الطَّرِيقِ العَامِّ حَتَّى تَشْهَدَ مَوَاقِبَ الْأَضْوَاءِ فِي
غَيْرِ إِزْعَاجٍ ، وَتَسْتَشْعَرَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ ذَلِكَ الِهْدُوءِ الشَّامِلِ ، وَيَتَجَلَّى لَكَ
مَا طَبِعَتْ عَلَيْهِ المَدِينَةُ مِنْ رَشَاقَةٍ وَرَقَّةٍ ، فَلَا يَلِبَثُ ذَلِكَ أَنْ يُلْهِيكَ عَمَّا
قَضَيْتَ مِنْ سَاعَاتِكَ العَشْرِ الطَّوَالَ ، وَإِذَا أَنْتَ مَاضٍ فِي المَدِينَةِ تَذَرَعُ
جَوَانِبُهَا مُسْتَوْعِبًا مَا فِيهَا مِنْ مَبَاهِجٍ وَمُتَعٍ .

أَكَا نَ خَلِيقًا بَنَا — بَعْدَ عَشْرِ سَاعَاتٍ فِي قِطَارِ سَيَّارٍ — أَنْ نَأْوِيَ
عَلَى التَّوِّ إِلَى حَجَرَتِنَا فِي الفُنْدُقِ ، نَبْتَغِي لِأَنفُسِنَا الرَّاحَةَ وَالدَّعَةَ ؟
لَعَمْرُكَ مَا كَانَ لَنَا وَقْدَ أَخْلَدْنَا إِلَى السَّكُونِ عَلَى مَقْعَدٍ لَا نَرِيْمُهُ طَوَالَ
مَرْحَلَةِ الْقِطَارِ ، إِلَّا أَنْ نَطْلُقَ أَقْدَامَنَا مِنْ عِقَالِهَا ، وَأَنْ نَرْمُوزَ أَجْسَادَنَا
عَلَى الحَرَكَةِ وَالِإِنْتِقَالِ فِي ذَلِكَ الجَوِّ الرَّحِيبِ .

بَلَدَةُ الشَّلَالَاتِ أُنِيقَةٌ رَشِيقَةٌ ، سَلِمَتْ مِنْ شَوَاهِقِ تَتَسَامَى فَتَنْطَحُ
السَّحَابُ ، أَوْ تَتَهَاوَى فَتَدْرُكُ الْأَرْضَ السَّابِعَةَ . . .

بلدة قوامها شارع عظيم تتفرع منه يمّنة ويسرة بعض المسالك
والطرق ، لا يُعييك أن تُلمّ بكل ما فيها أثناء جولة أو جولتين في ساعة
أو بعض ساعة .

هي بلدة سيّاح ، يتوضّح طابعُ السياحة الأصيل على متاجرها
ومطاعمها وأنديتها وسائر مرافق الحياة فيها .

وحيثما ترّجعُ البصر في أطرافها تطالعك الحدائق الفسّاح ،
والغابات الرّحاب ، والجزائر والجسور ، كأنها لوحُ تقنّ رسّامه في تحيّز
ألوانه الزاهية .

وإنك لتسير في مسالك هذه المدينة ، فإذا أنت تقف في الفينة
بعد الفينة تُنصتُ إلى ذلك الدويّ الذي يصافح سمعك ، لا تعرف له
مأثري ، كأنما هو هتافات تتجاوبُ بها الآفاقُ من بعيد ، فتحسُّ لها هزّة
ورّهبة ، ولا تملك إلا أن تُنمّن في الإصغاء لتستجلى ذلك النداء الخفي .
ما هو ؟ وما خطبه ؟ وكأن دافعاً مجهولاً يشير فيك الشّغف والتطلع .

وينتهي بك الطّواف إلى الفندق ، فتحتويك حجرتك ، وتلقّي
بنفسك على مرقدك ، فإذا الصوتُ يلاحقك ، ولكنه يزداد من وضوح
وجلاء ، فتجد إحساسك كله قد تجمّع في سمعك ، لتلقّي به تلك التريمة
التي يعمُر بها الفضاء ، وكأنما هي صوت الطبيعة يشدو ممجّداً عظمة الله ..
وتراك قد أسبلت جفنيك ، يتغشّاك سُبات عميق .

ويدركك الصباح ، فتغادرُ الفندق طوعاً لذلك الصوت الذي ما برح
يناديك ، وتدع لقدميك أن تنطلقا ، فإذا بهما تحملانك إلى تلك الحدائق

العامرة ، قائمة على جُزُرٍ وأشباهِ جزر ، وقد ترمى نُجَاهُهَا بساط من الماء
ينحسرُ البصرُ دون مُنتهاه .

وإنه لَماء عجيب الأطوار ، تارة هو رفيقُ الجِريّة ، وتارة هو أهوجُ
عرييد ، يراقصُ بعضُه بعضا ، كأنما يتواثبُ على درَج .

وتخترق الحداثق والغابات ، تملأ عينيك من مفاتن الطبيعة
المتبرجة . . . تلك التي تتخذ لها هناك في فصل الخريف منظرًا بدعًا ،
وروتقا عجبا ، إذ تكتسي بذلك الرداء البهيج المختلفة أنواعه .

وأكبرُ ما يرموعك مما ترى ذلك البحرُ المديد من أوراق الشجر
يغطي أديم الأرض كله . . . بحر ضحل لا تخشى فيه غرقا . قدماك
تخوضانه ، فتسمع لأمواجه خشخشة كأنما هي حديث ومناجاة .

ولا تفتأ تسير وأنت تخوض هذه الأمواج من الورق ، في فرحة
الطفل اللعوب . وتشعر في مسيرك بالشجر ينفضُ عليك نثارَ أوراقه ،
فكأنما هو رذاذ يتساقط عليك في كل خطوة تخطوها ، فلا تنى تميّطه
عنك لتمضي في الطريق . . .

وحينما قلبت النظر استقبلتك الطبيعة بزينتها : أشجار ما برحت
مُخَضَّرَةٌ زاهية ، وأخرى نصلت ألوانها بين صفرة وحمرة ، وأشجار
تعرّت من أوراقها ، فهي تتجمع وتتكمش أمام هبات النسيم ، كأنما
تستخفي عن أعين الرُقباء . . .

شدّ ما تتباين ألوان الطبيعة في حدائق تلك المدينة ، وكأن النبات

وهو يُودَّع فصل النور والتفتح يرغب قبل استكانته في فصل البرد أن
يسخو بكل ما في جعبته من فتنة ورونق

أليس من مفارقات الطبيعة أن تبدو الأشجار عريانة في فصل
البرد ، كاسية في فصل الربيع ؟

أمعن فكرك ملياً ، يُسفر لك السر . . . إن هي إلا خطة مرسومة
وفق نظام طبيعي دقيق : الشتاء جهامة وأهوية ، ما أقل ساعات النور
فيه ، فالناس في معتكفاتهم يصطالون ، لا هم لهم إلا النجاء من وطأة البرد
وقشعريرته ، فبهيات منهم التفات إلى زهرة تتنصر ، أو شجرة تُورق .
فقيم تنزين الأشجار ، وتجل بالآزاهير ؟ ولم تبرج الطبيعة وقد
أقفرت المسالك من العيون ؟

فأما فصل الربيع ففيه تسطع الأضواء ، ويطول عمرها في فسحة
النهار ، وفيه تعتدل الأجواء ، ويطيب الهواء . فلا يملك الناس إلا أن
يخرجوا أفواجا يملئون الرحاب ، ويرسلون الطارف متملياً محاسن الكون
ومفاتيح الطبيعة . وإذن فقد آن للشجر أن يتبرج ، ليتصيد الأبصار ،
ويسبي الألباب !

ليست الطبيعة إلا غانية ، قصارى همها أن تنصيب حباثلها في
أنسب الأوقات ، اختلاباً للقلوب ، واجتذاباً للإعجاب .

هأنت ذاتمضي في طريقك ، فتحس أن قدميك تسيران بك في
نهج معلوم ، إلى غاية مرسومة . وكلما قطعت شوطاً توضّح الهدير ،

واستبان عَصْفُهُ ، فإذا أنتَ خافقُ القلبِ واجِفُهُ ، وإذا أنتَ تَحُثُّ خطاك
مخترقاً تلكَ الحقائقَ والمنازَهَ .

وتصحو وَيُيَدِّأُ من نَشْوَتِكَ ، فتعرف أنك لستَ في هذا المكان
بأَوْحَدَ . . .

هنا وهناك زُورَ غير قليلين ، ليسوا وُحْدَانًا ولا زَرَافَاتَ ، وإنما
هم أزواج من ذكرٍ وأنثى ، كلُّ اثنين خاليان لنفسيهما تحتَ عريشٍ أو خلفِ
ظِلَّةٍ ، أو ترَاهما مفترشين ذلكَ البساطَ الطَّرِيفَ من ورقِ الشجرِ . وجوههم
جميعاً نَوَاطِقُ بالطلاقة والبشر ، فهم يستمرُّون أزهى ساعاتِ العيشِ ،
وأحلى أوقَاتِ الحياة .

إنهم في مستهلِّ أيامِ العُرْسِ .

وَمِنْ مِمَّ لُقِّبَتْ تلكَ المدينةُ بمدينةِ « شهر العسل » . يَخِفُّ إليها
الأزواجُ الجُدُّ أفواجاً يَغْنَمُونَ فيها متاعاً وبرجة . وهل يجدون لأعراسهم
مَثَابَةً أروعَ من تلكَ المثابة التي خلعت عليها الطبيعة أنفُسَ هَبَاتِهَا ،
وخصَّتها بأجملِ نفحاتها ، وكسَّتها صِبْغَةً من السكينة والهدوء يعزِّز
وجودها في ذلكَ الوطنِ الأمريكيِّ الصاخبِ العجَّاجِ ؟

وأنتَ إذا تباطأتَ خطاك ، لم يلبث الصوتُ الهذَّارُ أن يستحثَّك
على المَضَى غيرِ وان ، حتى تبلغَ المكانَ المقصودَ وهناك يتبينُ لك أنك
على رُبُوعٍ ترتُمِي دونها المَهَاوِي البعيدة ، وعلى يمينِكَ وشِمَالِكَ تَنْصَبُ
اللُّجَجُ في تلكَ المَهَاوِي غاضبة فَوَّارة . وإن هذه اللُّجَجَ لتَقْدِفُ بنفسِها
قَذْفًا ، كتائبَ كتائبَ ، يزحُمُ بعضها بعضاً في مصاولةٍ وغِلابِ .

وإنك لتشهد ذلك الصراع الفريد ، إذ تحرص كل كتيبة من
الموج على أن تسبق غيرها في الظفر بتلك القفزة الرائعة على صدر النهر
السحيق . وما هي إلا أن تحس في نفسك نزعة إلى مجارة هذه الكتائب
المتنمرة ، طلباً لتلك النشوة العظمى ، نشوة الوثب والانطلاق .
وإذا أرسلت بصرك ترقب الكتائب ، وهي تتساقط في حميتها
ونشوتها ، بهرك منها ما تلمح من أبخرة ناصعة ، تتخذ منها الشمس
غلائل ترسم عليها قوسها القزحي بأصباغه الزاهية ، وألوانه الفاتنة .
ولا بد أن يستبد بك الشغف فتطمح نفسك إلى رؤية تلك الكتائب
المتحاربة في مستقرها ، حيث يستقبلها النهر ، ويفسخ لها في مجراه
طريقاً للخلاص .

وإذا فعليك أن تتجهز لمغامرة صغيرة مأمونة ، تتدرع فيها بما
يقيك البلل . إذ أن مكانك هناك عن كثب من حضن النهر ، تنهمر
دونه فلول من تلك الكتائب الهاوية .
وحسبك في هذه المغامرة أن تكتسي رداءً سابغاً من المطاط
يشمك من الرأس إلى القدم ، فكأنما أنت قادم على صيد بحري عظيم
الخطر .

فإن هبط بك المصعد ، واحتواك شاطئ النهر ، فأنت من الموج
المتساقط تجاه ستار غليظ أو غمام كثيف ، راعب صوته ، كأنما هو
زئير جحفل لجب ، من سباع ضارية ، في فلاة موحشة . أو كأنه
بركان قد ثار وفار ، وزاح يقذف بالحمم ، ويرمي بالجنادل والرجم !

يَا لَهْوَل ... أهذا يومُ الحُشُر ، وتلك أضواءُ الخلائقِ في ضَجيجِ
وعَجيجِ ؟ .

هذه هي الشَّلالاتُ الأمريكية ، وذلك هو الشاطئُ الأمريكي ...
وعلى مَدِّ البصرِ يترأى لك الشاطئُ الكنديُّ بشلالاته . وقد
لا تَقْبَعُ بما شَهِدْتَ من ذلك الشَّطْر ، فتأبى إلا أن تستكملَ متعتك بما
هنالك ، فتعبرَ النهرَ على جسره العظيم ، « جسر قَوْسِ قَرْح » ، وبذلك
تنتقل من وطن إلى وطن ، وتنقُصِل عن أُمَّة إلى أُمَّة ...
أرض جديدة ، ومدينة تلقب بمدينة « الشَّلالات الكندية »
يظللها عَلم آخر ، وتقوم عليها حكومة أخرى ...

لقد اقتسمت « بريطانيا » و « أمريكا » هذه الشَّلالات ، فكانت
بينهما مُناصَفة ، ولكن الطبيعة لا تعرف ذلك التقسيمَ السياسيَّ ،
ولا تُقِيمُ له وزناً ...

ليست بلدةُ الشَّلالات الكندية إلا صورةً من بلدة الشَّلالات
الأمريكية ، أو هي تكملةٌ لها . ما تجده هنا تجدُ مثله هنالك ، حتى رشاقة
الدور ، ونظام المسالكِ والحدائق .

على أن روعة الشَّلالات الأمريكية لا تتجلى واضحةً المفاتن إلا حيث
يأخذها بصرُك من الشاطئ الكنديِّ . وأروعُ ما تكون إذا دجأ الليل ،
وراحت تكتسى من سواطع المصابيح الكهربائية المختلفة الألوان ، حلةً
رفافةً ساحرة ...

هنا تتزأجُ صِبْغة الطبيعة وصنْعة الإنسان ، فيتألفُ من ذلك

التزاوج مَنظَرٌ يسمو بك من حدود الحقائق الواقعية إلى آفاق الخيال .
وكأنك ، وأنت ترقُب هذه الشلالات تحت الأضواء الباهرة ، قد
امتطيت الجواز الطائر المسحور ، فطوح بك في عوالم خَفِيَّةٍ من خلقِ
الأساطير . ولا تلبث أن يُخَيَّلَ إليك أنك تشهد « جَحِيمَ دَانْتِي »
وأن هذا الماء الثائر الوهاج الذي تتعدَّد ألوانه ليس إلا جانباً من جوانب
تلك الجحيم ، تتلهَّب شُعْلُها ، ويتصعَّد دُخَانُها ، ويدَوِّي زفيرُها . يَبْدُ أنها
جحيم طَيِّبة مأمونة ، لا تُشْعِرُكَ خوفاً ولا رَهَباً ، ولا يصيبك من
نارها شواظ . . . وإنما تملأ قلبك فتنةً وروعةً ، وتثير بين حناياك
عبادةَ الجمال .

وإنك لتَظَلُّ في وَقْفَتِكَ ، غافلاً عن وقتِكَ ، يحول بك جوازك الطائر
في مملكة الخيال الرَّحِيْب ، منتقلاً من أَفْقٍ إلى أَفْقٍ ، يَعْرِضُ عليك
أَفْتَنَ ما في الوجود من مناظرٍ وصُور .

وما تزال في غَفْوَتِكَ ، بل في نشوتِكَ ، حتى يتلطف لك نسيمُ
الليل ، فيعابثُك بِلَمَسَاتِهِ ، فتصحو من أحلامك راجعاً إلى دنيا الواقع ،
وتتفقَّد دِثَارَكَ لِتُحْكِمَ وَضْعَهُ على كتفِكَ ، وتدفع بخطاك إلى مستقرِّك ،
وكأنك آيبٌ من سفرٍ بعيدِ الشُّقَّةِ ، جُرْتَ فيه بآمادٍ من الحِقَبِ الخوالى .
ويستضيفُكَ مكانُكَ من الفُنْدُقِ ، فتَمْضِي متصفِّحاً تلك المصورَّات
التي تقصُّ عليك نَبأَ الشَّلالات ، وتمثِّلُ لك مفاَئِدَها ، فيسترعى بصرك
منظرُها تحت وطأة الشتاء .

هذه الكتائبُ الصَّخَّابةُ العرييدة من الموج يكبحُ جماحها البرْدُ ،

فتقلب كتلاً صاماً ساكنة . بينا هي متأهبة لوثيتها الجريئة ، إذا هي
قد جمدت بغتة ، واستحال ماؤها السيال صفائح من صخر أملس .
إنها ما برحت في وضعها المائي تواصل التدفق ، إلا أن كتابتها
وهي في مهبطها قد بطلت حركتها ، وتماسكت متعلقاً بعضها ببعض ،
كأنما قد فجأها ما يرُوع ، فوقفت مستسامة ليس بها حراك .

وإن منها كتابات أدركها القر ، وهي في رأس الشلال على وشك
الإنحدار ، فلبثت معلقة على فم الهاوية ، لا هي بقادرة على أن ترتد ،
ولا هي بقادرة على أن تواصل وتُوبها إلى القاع . هي من أمرها في حيرة
ودهش ، تتميز غيظاً من عجزها وجودها . وهام أولاء رؤود الشلالات
الذين كانوا بالأمس يرهبون سطوتها ، ويحاذرون الدنوء منها ، تراهم اليوم
يتواثبون على مُتُونها في غير محاذرة ولا رهب ، يسخرون من جهودها ،
ويشمتون بعجزها !

وثمة كتابات أخرى ، باغتها البرد في منتصف المهوى ، جمدت
وانسدت دونها المسالك . تبدو بقوامها الفارع مصلوبة شدت رعوسها
بأمراس إلى الحافة ، وجذبت أقدامها إلى قرارة الهاوية ، فهي ماثلة في
أغلاها تنتهبها العيون !

ما من كائن حي إلا له وقت راحة ودعة ، فهل تأبى هذه الشلالات
حكم الطبيعة ، وتضيق بحكمة الوجود ؟

إن الشتاء ليُتيح لها فرصة للصمت والهجوم ، تستجيم وتستجمع ،
متهيئة لصراع جديد .

ليس منظر الشلالات شتاءً بأهونَ من منظرها في الصيف ،
ولكن المرءَ ولوعٌ أبداً بالحركة والصَّخَبَ ، يؤثرها على الجمود
والتوقف ... ومن ثمَّ كان الصيف هو الموسم الأعظم لبلدة
الشلالات .

توافد على هذه الشلالات ألوف مؤلفة من الخلائق ، يحدوهم
الشوق والتطلع ، وتجذبهم مغنطيسية عجيبة تكمن في تلك الأمواج
الزواخر . وكأنَّ هذه المنطقة الفريدة كعبةٌ يتعبد لِسِحْرِها البشر من
كلِّ جنس ، ومن كلِّ صُقع .

ولم يُعوِّز هذه الكعبة ما يتوافر لمختلف المعابد والمواطن المقدسة
من ألوان الزُّلفى وصنوف القرايين ...

فإذا كانت المدينةُ العصرية قد اكتسحت أمامها عادة الهنود
الحمر الذين كانوا يزدلفون إلى الشلالات بعرائسَ يجلونها لها في الحوُل
بعد الحوُل ، فإن البشرية ما زالت تقدِّم من ذاتِ نفسها قُرْبَاناتٍ لذلك
المعبود العظيم !

ثمَّة عن كَشَبٍ من رأس الشلالات جِسْرٌ يلقبونه «جسراً لانتحار» ،
يتهاوى منه الناس إلى الشلالات ، فيتفانون فيها ... وقد سجَّل الإحصاء
جملةً من الخلق يُلقون بأنفسهم إلى المهوى كلَّ عام .

تُرى هل يدفعهم إلى ذلك ضيقُ بالحياة ، ونوى بالهموم ؟
أو هو دافع كمين من سحر الشلالات يحدوهم على أن يبذلوا أنفسهم
في سبيل الموج ، ملتَمسين تلك النشوة الشائقة ، نشوة الوثبة العظمى ،

والإندماج الأكبر في تلك الكتابِ العارمة التي ينطوي ركبها الجبار
على الغاز وأسرار ، بعيدة المرمى ، عصيّة المنال ؟ !

مرّت عَجَلاً أيامنا في « نياجارا » ، ورجعنا من هذه الحجة قد أدّينا
لها شعائرَها من زُورَةٍ ومطاف ، تاركين لغيرنا ممن مَلَكَتهم صُوفِيَّتُها
أن يقدّموا لها القرْبان !

الورد في "موتترو"

نحن المصريين نذكر « موتترو » ونحفظ لها في أعماق النفوس
جميلاً . .

في هذه البقعة الكريمة تمتّ المعاهدة التي تخلصت بها « مصر »
من وصمة معيبة ، وصمة ذلك الوضع العجيب الذي كان يفرض علينا قضاءً
أجنبياً يَشْمَخُ على قضائنا الوطني .

ولسنا نحن وحدنا الذين نذكر « لموتترو » جميلاً العظيم ، فإن
العالم كله يعرف لهذا البلد الطيب أنه المثابة التي يفسح صدرها لمختلف
المؤتمرات الداعية إلى خير ومُصافاة وسلام . . .

كأنما بسطت هذه الرقعة من الأرض ، لتذوب في رحابها أسباب
الخلف والخصام ، فلا تتركها الوفود إلا وقد تصاغت الأيدي ، وتعاقدت
القلوب على محبة ووئام . . .

لم يكن محض مصادفة أن تُكَلَّل مؤتمرات « موتترو » بالنجاح
والتوفيق . فإني لزعم بأنه لا يَبُوء فيها مؤتمر بإخفاق ، مهما تستحكم
دواعي الشقاق .

هذا الجو الذي يَشيعُ فيه الدَّفء الوادع . .

تلك المشاهد الرائعة التي تتبرَّجُ فيها الطبيعةُ بِحُلَاهَا الفواتنِ ،
من مروجٍ يَمُوجُ بالكروم ، وجبالٍ تُورِقُ وتتنَضَّرُ . . .
هذه البُحيرةُ الساجيةُ التي تنبسطُ صفحتها في إشراقٍ وابتسام . . .
ذلك الممشى البَحْرِيّ الأنيق « الكورنيش » تظللُهُ العرائشُ ،
وقد تدلَّت منها الرياحين . . .

أليس في مقدور هذه المفاتن مجتمعةً أن تُفْرِغَ السكينةَ على القلوب ،
وتُشِيعَ الصفاءَ في حنايا النفوس ، فلا أعصابَ تشور ، ولا بغضاءٍ تتلظى ؟
وإذا عُرِفَتِ اليومَ « موترو » بأنها مدينةُ المصالحاتِ وفضِّ
لخصومات ، فإنها كذلك مُصْطَافٍ نادرٍ يصطفيه الملوكُ والأمراءُ من
حَمَلَةِ التَّيجَانِ وأصحاب العروش ، أو ممن كانت لهم تيجانُ أزالتها الأحداثُ ،
وعروشٌ أدالتها الأيام .

وهي كذلك مَهْوَى أفئدةِ ملوكِ آخرين ، تيجانهم من ورق النقد ،
وعروشهم مؤسسات ومصانع . أولئك هم جبابرةُ التجارة والصناعة ،
والطُّغاةُ المهيمنون على أسواقِ المال .

في ذلك المأوى الظليل الذي تألف فيه الحمائلُ فَوَاحَةَ العطر ، ينعم
هؤلاء المكدودون العظام بأوقيات راحةٍ وانطلاق . . .

هنالك يَحْيَوْنَ حياةَ عامة الناس ، فيضعون جانباً ما يعتاقهم من

قيود التكاليف والمراسم والأوضاع

لا تيجان تنوء بها الرءوس .

لا أوسمة تضيقُ بها الصدور .

لا فَرْضَ لِرِزْيٍ مَحْتومٍ فِي عَشِيدَةٍ أَوْ غَدَاةٍ .
إِنَّمَا هِيَ نَزْعَةُ طَلَّاعَةٍ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ أَثْقَالِ الْهَمِّ ، وَأَحْجَالِ التَّجَبُّعَاتِ .
إِنَّمَا هِيَ رَغْبَةٌ عَارِمَةٌ فِي نَسْيَانِ أَنْهَمُ عُظْمَاءُ !
أَنْتَ إِذَا جُرُزْتَ خِلَالَ الطَّرِيقَاتِ فِي « مَوْتَرُو » تَغَشَّى فَنَادَقَهَا
وَمَشَارِبَهَا وَمَا يَتَنَاقَرُ فِيهَا مِنْ أُنْدِيَةِ اللّٰهُو ، لَا يُعَيِّنُكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ هَذَا
هُوَ الرِّكْنُ الْمَخْتَارُ لِدَاكِ الْأَمِيرِ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّوَايَةَ يَسْتَأْثِرُ بِهَا ذَلِكَ الْعَظِيمُ .
وَمِنْ الطَّرِيفِ لِشَرْقِيٍّ مِثْلِكَ أَنْ يَتَنَاهَى إِلَى سَمْعِهِ هُنَاكَ تَهَامُسُ
النَّاسِ بِأَنَّ هَذَا الْفُنْدُقَ يَتَّخِذُ زِينَةَ قُصُورِ « أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ » مَرَّةً كُلَّ عَامٍ ،
إِذَا نَزَلَ بِهِ ذَلِكَ الْغَطْرِيفُ الشَّرْقِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَقْضِي فِيهِ « شَهْرَ الْغَسَلِ »
مُصْحُوْبًا بِعُرُوسِهِ الْجَدِيدَةِ ، مُسْتَمْتَعًا مَعَهَا بِاللَّيَالِي الْمَلَّاحِ .
هَذَا حَقًّا « شَهْرِيَارُ » الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، يُعِيدُ إِلَى الْأَذْهَانِ عَهْدَ
« شَهْرَزَادِ » . .

وَكَمْ فِي « مَوْتَرُو » مِنْ طُلَّابِ صَبُوءَةٍ ، تَتَبَّعْنَ فِيهِمْ شِمَائِلُ مِنْ
« شَهْرِيَارِ » !

وَكَمْ فِيهَا مِنْ ذَوَاتِ فِتْنَةٍ ، تَتَوَضَّعُ فِيهِنَّ مَخَائِلُ مِنْ « شَهْرَزَادِ » !
وَأَنْتَ إِذَا شِئْتَ أَنْ تَضَعِ « لَمَوْتَرُو » تَعْرِيفًا مُوجِزًا ، فَقُلْ :
هِيَ فَنَادِقُ وَسُيَّاحٍ ... حَتَّى إِنَّهُ لِيَتَرَاءَى لَكَ أَنَّ الْمَدِينَةَ يَبُوتُهَا خَانَاتُ ،
وَأَهْلُهَا ضِيُوفٌ نَزَلَاءُ !

إِنَّهَا تَجْمَعُ شَتَّى الْأَجْنَاسِ ، فِيهَا مِنْ صُنُوفِ الْبَشَرِ مَا لَا يَخْطُرُ لَكَ
عَلَى بَالٍ ،

هنالك إنسان الشمال يساير إنسان الجنوب .
هنالك مَعْرِض دائم من الأسمر والأشقر ، ومن الأحمر والأصفر ،
إلى غيرهم من ذوى الصور والألوان .
ولكن المدينة الآن على الرغم من ذلك يستأثر بالغلبة فيها
عنصرُ « الأمريكان » . . .

فيها تجد « أمريكا » كامنَةً في كلِّ ركن ، مُطلَّة من كلِّ أفق . .
فلو أنك هَزَزْتَ غصنَ شجرة ، في خائلها ، لَهَبَطَ عليك أمريكيٌّ
كان يُزَاحِمُ الأطيَّارَ في الأوكار !

هذه البلدة الصغيرة التي يَتَبَنَّاها سَفْحُ جبل متواضع ، قد استطالت
على « أمريكا » بلدِ الشواهِق والشوامخِ ناطحاتِ السُّحُب !
يُزَعُّ الأمريكيُّ إلى « مونترو » ليصيبَ فيها جوهراً يَعِزُّ عليه
مَنآله في وطنه العظيم . . .

ذلك الأمريكيُّ تَطْحَنُهُ الآلةُ الصاخبة بلا رحمة ولا هُدنة ولا مهل ،
كما تدور الدَّوَّامة العاتية في عُباب زاخِر .

وإنه لَيَفْزَعُ إلى « مونترو » ليتأمَّسَ في أرضها ذلك الجوهرَ العزيزَ
من التَّراخِي ، أو ما يسمونه « الرِّيلاكْس » ! .

في حِضْنِ الطبيعة الحَنُونِ ، بلا صنعة ولا زُخْرَف ، تبيع « مونترو »
للأمريكيين مُشْعَةً « التراخي » ، وهم الرابحون ، مهما يبدُلوا من
الهَيْل والهَيْلَمَان !

ولكن « مونترو » فوق ذلك كله تتميزُ بأنها بلد الورود . . .

الوردُ في كل مكان ، يصافح عينيكَ بِمَرَّ آه ، ويمارِجُ أنفاسَكَ
بِطِيبِ رِيَّاه !

تراه منشورا على صَفَحَاتِ التَّلَّال ، بهيِّجَ الألوان . . . بل إنه ليتسلَّل
إلى المسالك والدروب ، يكسوها بنسيجه من المُخْمَلِ والذَّيْبَاج .
تراه يُشْرِفُ من النوافذِ مَرَّهُوَآ في الأَصْصِ الأنيقة ، يُحْيِيكَ ويبتسم
لك في إشراق .

الشُّرُفَاتُ به حَآيَاة ، فكأنما هو وَشْيٌ جميل تتبرَّجُ به الدُّور .
وَتَمَّةٌ ورد آخر في « موترو » هو أَفْتَنُ ما حَوَتْ من ورود . . .
زَهْرَاتِ آدَمِيَّة ، تعلو بفتنتها وحسنها على كلِّ ما تَنْبُت الطبيعة
من رِيحَان !

أينما تَلَفَّتْ اجتذبتُ ناظركَ زهرة مُتَنَقِّلَةً ، يتمايلُ غصنُها الرِّطِيبُ
من دَلَالٍ وإِغْرَاء .

إنها زهرةُ الطبيعة الحَقَّة ، تَجِيشُ فيها حرارةُ الحياة !
الورد في « موترو » يتجلى في كل شيء . . .
الورد يَتَنَضَّرُ في الخدود ، يُشِيرُ الفتنة والسحر !
الورد على الشِّفاه ، ينسابُ رِقَّةً في الكلام !
الورد في النظرات : سِهَامُ ناعمة تَلْمِسُ شَعَفَ القلوب !
وأعجبُ ما يروَعُكَ من هذه الزهراتِ الآدمية ما تترأى فيه من
أَشْتَاتِ الأَزْيَاء . فلكل زهرة ذوقها فيما تختار من ثوب ، وإنها لتخترع
الصور والأشكال طريفة الطَّرَاز ، تكاد تسمو بها على آفاق الخيال .

أزياء النساء في « مونترو » لا يحكمها تقليد ، ولا يضبطها نظام .
فهي تعبر عن نزعة الطلاقة ، ورغبة التحرر ، حتى لتبلغ درجة الشذوذ .
لكأنهن في محفل من محافل التنكر ، أبدعته ساحرات من
بنات الجن ، لا صبايا من بنات البشر . . .

القمصان الحريرية الملونة تارة فضفاضة ، وتارة لصيقة . طوراً
كاسية ، وطوراً كاشفة . وإنما لتبسط على الأجساد أو تنحسر ، كأنها
أمواج البحر ، بين مدّ وجزر . . .

يُمينا إن هذه القمصان لكاذبة أبين الكذب إذ تدّعي أنها أداة
ستر ، وآية صون . فإنها لتفشي جهرة أسرار الجمال الجاثمة على الصدور !
وثمة سراويل . . . لا تدري أي نوع هي ؟ سراويل متوهجة
الألوان أو وادعة ، بين قصيرة وطويلة . . . تنكش وتقلص ، حتى تدع
مفاتيح السيقان نهبا للعيون ؛ وتبدو سابعة مَوَاجَة ، فتثير الشَّغَف ، وتُدْكِ
نوازع التطلع والفضول !

وثمة مناديل . . . مناديل هفافة على الرعوس ، رفاقة بألوانها
الزاهية . . . كأنها تقص علينا صفحة جديدة من قصة الورود !
وأنت تَنسَى ولا تَنسَى من أطرف مناظر تلك الزهرات
الآدمية في ذلك البلد الأنيس . . .

أسرابٌ منهن يعتلين الدراجات ، يتباهين بأثوابهن الغرائب ،
وينطلقن في نشوة ومِراح ، فتلمحن حمام طائرات ، تستروح من
خطراتهن أنسام الربيع !

صَحِيفَةُ الْخَائِبِينَ

«أمريكا» بلدُ الإِخْتِرَاع ، لا تِرَاع ...

هى التى تتولَّى اليومَ مُوَافاةَ العالمِ بكلِّ طريفٍ مبتكرٍ ، جليلِ النفعِ

أو تافه الجدوى ...

فالحياة الأمريكية يتمثل فيها الواقع بالابتداع والإستحداث . ومن
كان ولوعاً بأن يبتدع فى كل منْحَى من مناحى الحياة ، ويستحدث
فى كل مرْفَقٍ من مرافقِ العيش ، فإنه لا يسلم من السُّخْفِ بعد السُّخْفِ ،
ولا يَضْمَنُ التوفيقَ فى كل آن .

ومهما يكن من أمر ، فقد أَخَذَتْ «أمريكا» على نفسها أن تقدِّمَ
للعالم على الدوام ولائماً تزدحم فيها أنواعُ من الصِّحَافِ مختلفةُ الألوان ،
متباينةُ الطُّعُومِ . ولكلِّ امرئٍ أن يصيبَ منها ما يحده لذيذُ المأكَلِ ،
طيبَ المذاقِ .

وهأنذا أصفُ للقارىءِ بدعةً أمريكيةً جديدةً ، صادقتها فى عالمِ

الصِّحَافَةِ منذ عهدٍ قريبٍ .

إنها بدعة متواضعة غاية فى التواضع ، ولكنها فيما أرى بدعةً
لها فى ميدانها شأنٌ عظيم . وما أحقُّها بأن تُتَّخَذَ نموذجاً يُحتذى

في ميادين أخرى غير ميدان الصحافة . .
تساقطت إلى مجلة تُسمى : « مجلة القصص المرفوضة » ، فما
إن أُلقيت نظرة على صفحاتها حتى أَلَمَّتْ بِمَشْرِبِهَا ، وتبينت مُقْصِدَهَا .
هذه المجلة القصصية لا ينفصح فيها مجال النشر إلا لقصة سبق أن
رَفَضَتْ نشرها الصحف والمجلات !

وعلى رأس الشروط المطلوبة لنشر القصة المرفوضة أن تكون
مصحوبةً بشهادة من الصحيفة التي رفضتها ، تُثَبِّتُ فيها أن هذه القصة
حقا كان نصيبها الرفض . فالمجلة تأتي كلَّ الإباء أن تَفْسَحَ صفحاتها
لقصة لم تظفر بشهادة سقوط وخيبة مُصَدِّقٍ عليها من جهات
الاختصاص ! ...

وليس من غرض هذه المجلة أن تنشر القصة جَبْرًا لخاطر مؤلفها
الخائب ، أو إعلاءً لشأنها ، ونَقْضًا لما صدر عليها من حكم . ولكن
المجلة ترمى إلى غرض تعليميٍّ كريم . فهي تَنَشُرُ القصة المرفوضة
مشفوعةً بنقد فنيٍّ صريح ، لا محاباة فيه ولا دِهَان ؛ يدبِّجُه كاتب من
أعلام النقاد ...

وإن في هذا الصنيع لفائدة عظيمةً لصاحب القصة خاصةً ،
وللقراء عامة .

فأما فائدته لصاحب القصة ، فهي :
أولاً : أنه يَظْفَرُ بنشر قصته ، وإذاعة اسمه . ولا يَغْضُ من
تلك الفائدة أن النشر والإذاعة في معرض الخيبة والإخفاق ، فقد

طبع كثير من الناس على حُبّ الظهور في أىّ مظهر . وإن هؤلاء
ليتشهّون أن تُنشر أسماؤهم ، ولو في باب الوفيات !

والفائدة الثانية لصاحب القصة ، أنه يطلّع على نقد متين لقصته ،
يبصّره بمواطن ضعفه ، ويهديه سبيل التجويد والإتقان .

وأما فائدة القراء عامة فهي اشتراكهم في تعرّف مواطن الضعف
في التأليف القصصى ، واستجلاء نماذج من السقطات التى تورّطت
فيها أقلامُ القصّاص . ولا غنيّة لأديب ، ولا راغب في معالجة
الكتابة القصصية ، عن هذه الدروس التى تحفل بضروب من الموازنة
والهداية والتبصير .

وإذن فهذه المجلة ، « مجلة القصص المرفوضة » ، بدعة حسنة
نحمدها للعقلية الأمريكية الفتيّة ، ونرجو أن يكون لنا فيها
عظة ومُعْتَبَر ...

فأنا أهيبُ رجال الصّحافة أن تكون لهم في هذه البدعة الحسنة ،
أسوة حسنة . فليتقدّم منهم متقدّم ، وليتوكّل على الله في إنشاء
صحيفة يُسمّونها :

« صحيفة الخائبين » !

ولست أرى أن تكون مقصورةً على القصص وحده ، ولا على
فنون البيان خاصّة ، وإنما أقترح أن يتسع مجالها لشتى الأغراض في حياتنا
الاجتماعية ، حتى لا يَجْنِي ثمرتها فريق دون فريق . فإنها متى نَمَت
أغراضها عمّ الانتفاع بها بين الناس .

فلتكن صحيفة الخائبين جميعاً ، ولتشمل كل فرع من فروع الحياة...

ما أكثر من خابوا ، أو من يتوهمون أنهم خابوا ، فيفرون من الميدان متشائمين ينطوون على هزيمة ويأس . وخير لهم ولا جميعاً أن يجدوا في هذه الصحيفة متنفساً ، فيعرضوا قصص إخفاقهم صرخاء لا يدارون ولا يكابرون . على أن يكون من وراء كل قصة تعقيب علمي يشرح أسباب الإخفاق ، ويهدي طريق النجاح...

لماذا ندع الخائب صريع خيئته ، لا يجد من يُعينه على النهوض لاستئناف السعي ومواصلة الكفاح ؟

إن الخائب في الحياة عضو أشل ، بل هو في أغلب أحواله عنصر بهدام . فالإخفاق يغرس في نفسه الحقد ، وما الحقد إلا توأم الشر ، وزناد الكيد . وما من خائب إلا يُبغض من يراه ناجحاً دونه ، فيعمل على النيل منه ، ما واثته الحيلة ، وأسففته الوسيلة .

كيف لا نبذل الجهد إذن حتى نجعل من هذا الخائب ناجحاً جديداً ، يؤازر فيما يعود على المجتمع بالخير والنفع ؟

وإذا كنا نهيئ بأرباب الصحف أن ينشئوا هذه الصحيفة الجليلة ، فإنهم لا يبلغون مأربهم من إنشائها إلا إن رحب جمع الخائبين ببذل العون في صراحة وجرأة وإقدام . . . فعلى أولئك السادة ، أعلام الخيبة ، وأبطال الإخفاق ، يقع العبء الأكبر في هذه الصحيفة . وبفضل معونتهم الصادقة يتوافر لها التوفيق في تحقيق غايتها المثلى .

وإن صحيفة هذا شأنها هي صحيفة تخدم المجتمع كله . تخدم الناجح المتألق فيحرص على أسباب نجاحه ، ويتجنب موارد الإخفاق . وتخدم الخائب الأصيل المزمّن فيعالج الداء ، ويتلمس السبيل إلى الشفاء . وتخدم الخائب الناشئ فيتنكب عن الهوة التي زلت فيها قدمه ، ويتلافى ما كان من أمره ، ويتخذ له في الحياة مسلكاً قوياً .

أما رياسة التحرير في هذه المجلة الفريدة ، فأني أقترح أن تسند إلى خائب مكين في مضمار الحياة ، بارع الإخفاق في مختلف الآفاق ، حتى يكون بمهمته الجديدة واسع الخبرة ، سريع الفطنة ، يرى فيه الخائبون جميعاً مرجعاً وثيقاً لأصول الخيبة وفروعها !

فمن ذا الذي يأنس في نفسه الشجاعة والصراحة والكفاية لهذا المهم ، فيرشح نفسه لرياسة تحرير تلك الصحيفة المنشودة ، حتى يثبت بحق أنه الخائب الأول ، أو الزعيم الأكبر لجمع الخائبين ؟ !

”بَلاَص” الجَمَال

استقرَّ المقام بصديقي « عَزُوز » في الرِّيف . ولم ينسَ أن يواتيني في الفينة بعد الفينة برسائل طريفة تصفُ حياته هنالك ، وتجلو ما يدور بخاطره . ولطالما جَنَحَ فيما يكتب إلى الإغراق والشذوذ عن المألوف . وحسبي أن أشيرَ إلى رسالته الأخيرة التي ملأها بتعليقاته ، أو بالأحرى « بتعليقاته » في شأنٍ من شئون الحياة الريفية . وإني إذ أبيعُ لنفسي نشرَ رسالته تلك ، فإنما يشجُّني على ذلك أن صديقي مُضْرِبٌ عن مطالعة الصحف ، وقراءة الكتب ، منصرفٌ إلى حياة الفأس والمِجْرَاث . وأكبر يقيني أن إذاعتى لفكرته ستظلُّ سرًّا مكتوماً عنه . وفي ذلك ما يُخْلِيني من التَّبعَةِ أو المَلَام .

يقول — بعد التحية — فيما يقول :

« استرعى نظري قَوَامُ صبايا الريف في مَشْيَتِهِنَّ المعتدلة ، وقد استقامت هاماتهن ، فعجبتُ كيف لا يكون هذا القَوَامُ السَّوِيّ لفتيات المُدُن ؟ على حين أن كثيراً منهن يزاولن التمرينات السَّويدية التي هي

أشبهه بالحركات « البهلوانية » ، مما تطالعنا به الصحف والمجلات في اليوم بعد اليوم ولست أدري أتعالعا به لكي تحبب الرياضة إلى المرأة ، أم هو اجتذاب لعين الرجل ، وإذ كاي لدواعي الإغراء ؟

عجبتُ لذلك كلَّ العجب ، فالريفيات بحمد الله لا يعامن قليلا أو كثيرا من شأن تلك التمرينات ، ولو عرفن منها شيئا لما آمنن بأن لها أية فائدة !

وهل ننكر أن الكثرة الغالبة ممن يتبحرن من المدنيات في الطرق ، لا يحسنن السير على أسلوبه الأصيل ، وفننه الجميل ؟
فأما الريفية فهي على غرارها تمتاز بمشية صحيحة . ولعل لسذاجة الريف فضلا في احتفاظ المرأة هنالك ببصيرتها النيرة التي تهديها إلى الظهور بالمظهر الملائم لها باعتبارها أنثى . وعلى العكس من ذلك يطمس التمدن بصيرة المرأة في المدينة ، فلا تعرف كيف تسير السير الفني الذي يكفل لها رشاقة القوام .

وقد بذلتُ جهدي باحثا منقبا ، أستجلي سر تلك الموهبة الريفية ، فاتتهى بي البحث والتنقيب إلى كشف جديد لا يستهان بأمره ، ولا يقل شأنًا عن أي كشف وطني آخر . ففي معتقدي أن هذا الكشف خلاق أن يُعدَّ للبلاذ جيلا جديداً من النساء ، يفوق بمشيته وقوامه فن « هوليود »

وإذا كنتُ قد أجزتُ لنفسي أن أفضيَ به إليك في رسالة خاصة ، فإنني ليعز عليَّ أن أذيعه بين الناس قبل تسجيله ،

والإحتفاظِ لنفسى بحقوقه كاملةً غيرَ منقوصة .

يتمثل هذا الكشف في كلمة واحدة ، هي : « البَلَّاص » . . .

أو بتعبير الخالدين في المجمع اللغوى : « الجُرَّة » !

أَخْشَى أَنْ تُسْرِعَ إِلَى تَفْرِكِ ابْتِسَامَةِ السَّخَرِيَّةِ حِينَ تَصِلُ إِلَى هَذِهِ
الْفِقْرَةِ مِنْ رِسَالَتِي ... فَبِاللَّهِ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي أَمْسِكْ عَلَيْكَ سَخَرِيَّتَكَ ،

وَادَّخِرْ ابْتِسَامَتَكَ لِغَيْرِ هَذَا الْمَوْقِفِ ، وَاصْبِرْ عَلَى حَتَّى أَتَمَّ لَكَ حَدِيثِي .

أَنَا مُؤْمِنٌ بِأَنَّ الرِّيفِيَّةَ لَمْ تَكْتَسِبْ قَوَامَهَا الْمَشِيقَ ، وَمَشِيَّتُهَا الرِّيَاضِيَّةَ ،

إِلَّا بِفَضْلِ « الْبَلَّاص » . . .

هو في تكوينه الخاص ، وطريقة حمله على جانب الرأس ، ابتكار

مصرى خالص ، لم يسبق إليه أحد ، ولم ينافس فيه أحد . . . وإنه ليدلّ

على عبقرية أهل الريف ، وتَجَلَّى أَذْهَانُهُمْ فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ بِالْبَرَكَةِ وَالْخَيْرِ .

أُنْظُرْ إِلَى « الْبَلَّاصِ » فِي مَكَانِهِ مِنْ رَأْسِ حَامِلَتِهِ ، تَجَدُّهُ كَأَنَّمَا هُوَ

صَنْجَعَةٌ مِيزَانٍ ، عَلَيْهَا يَتَوَقَّفُ حُسْنُ الْإِتْزَانِ . . . فَالْمَرْأَةُ حِينَ تَحْمِلُ

« بَلَّاصَهَا » عَلَى هَذَا النِّحْوِ إِنَّمَا تَجْعَلُ أَعْضَاءَهَا تَسْتَجِيبُ لِمُقْتَضَيَّاتِ

التَّوَازُنِ فِي الْحَرَكَةِ وَالْوُقُوفِ . وَمِنْ ثَمَّ تَتَكَيَّفُ الْعَضَلَاتُ ، وَيَتَأَثَّرُ

الْجِسْمُ كُلُّهُ ، بِمَا فِيهِ مِنْ شَحْمٍ وَلَحْمٍ ، وَفَقْ هَذِهِ الْمُقْتَضَيَّاتِ .

أَتَرَكَ تَسْتَرِيبُ بِمَا أَقُولُ ؟

عَلَيْكَ بِأَيِّ طَالِبٍ مِيكَانِيكِي يَشْرَحُ لَكَ فِي لِحَظَاتٍ نَظَرِيَّاتِ الْأَوْزَانِ

وَالْأَثْقَالِ ، وَنِظَامَ الْقُوَّةِ وَالْمَقَاوِمَةِ ، وَأَنْوَاعِ الرُّوَافِعِ ، وَظَوَاهِرِ الْمِيزَانِ

الرُّومَانِي . فَلَا تَلْبَثْ أَنْ تُؤْمِنَ مَعِيَ بِمَا أَنَا مُفَضِّلٌ بِهِ إِلَيْكَ .

« البَلاص » على الرأس : « مركز استراتيجي » عظيم الشأن ، في دولة الرِّشاقة ... فهو إذا اعتلى عرشه الرفيع ، واستقرَّ في وضعه المكين ، ألفت الجسد كله قد اتخذ الأهبة للإستجابة ، وشاعت فيه اليقظة للصيانة والحراسة : القامةُ مستوية ، والهامةُ مرتفعة ، والصدرُ ناهد ، والعَضَلُ مستوفز . فأما ما قد يكون من فواصل الشَّجَمِ فإنه يتَسَرَّب ويتَسَلَّل ، ولا يلبث أن يتزائل .

وإنك لترى حاملة « البَلاص » وقد اتخذت في سيرها مظهر التخطر والتهادى ، فهي متتدة الخطو في غير تحلُّع ولا تراقص ، بادية المفاتن في حِشمة وبراعة من الابتذال ...

أرأيت إلى « البَلاص » كيف هو بالغ الأثر في حياة صبايا الريف ، وإيفائهنَّ حظاً من الرشاقة غير قليل ؟

نصيحتي إلى كل من تَشُدُّ الرشاقة والمشيئة الجميلة أن تقتنى في منزلها « بَلاصاً » تمارس به تلك الرياضة الجديدة ، فتحمله على رأسها على ذلك الوضع الفني المبتكر .

ولعلِّي أوفق قريباً إلى أن يكون لي الفضلُ في وضع تمرينات مرسومة ، تبصِّرُ نساءكم المدنيات بفنَّ المشية ، رَهْنَ مشيئة « البَلاص » !

حذارِ أن تظنَّني أهزل فيما خُضْتُ فيه من حديث ، فأنا أقدر ما أقول حقَّ قدره ، وأؤمن به أعمق إيمان . وما سَوَّغْتُ لنفسي أن أجاهرك به إلا بعد روية وأناة ، وبعد أن وطَّنتُ العزمَ على الهتاف بهذا الإكتشاف ، والعمل على بثِّ تلك الدعوة بشتى وسائل الإعلان .

وإني ليد عبئى أمل فى أن يبلغ صوتى أقصى أنحاء المعمور ، وبخاصة
البلاد الأمريكية ، حيث يقيم الأمر يكون أعظم الوزن لأساليب التجميل .
ولعلّى موفق فيما بعد إلى إنشاء مصنع لصّب « البلايص » المصرية
الأصيلة التى هى من طينة النيل ومن نار الوادى . فأغزو بها أسواق
الأمم ، وأكسب للبلاد غنماً تجارياً ليس بالهين اليسير ، ونخاراً وطنياً
ليس وراءه نخار

هذه هى فكرة صديقى « عزّوز » كما سجّلها فى رسالته إلى .
وإنى أرى أن الأمر أخطر من أن يُعبّر به عبور الإهمال .
ولعلّ من الخير أن تتألف لجنة قومية خطيرة تدرّس تلك الفكرة ،
توطئة لتأسيس « شركة مساهمة لصنع الجرار المصرية » . . .
وبذلك تتطوّر « بلايص العسل » فتصبح « بلايص الجمال » !

فِي صَوْمَعَةِ الذِّكْرِيَّاتِ

أَعْلَى مَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ : ذِكْرِيَّاتُهُ !
إنَّهَا ذَخِيرَتُهُ الَّتِي يُجَلِّدُ إِلَيْهَا فِي حَيَاتِهِ الْوَجْدَانِيَّةَ .
بِهَا يَطْمَئِنُّ بِأَلِهِ ، وَفِي مَجَالِهَا يَمْرَحُ خَيَالُهُ ...
فَهِيَ لِنَفْسِهِ أَنْسَ ، وَهِيَ لِرُوحِهِ مَتَاعَ .
مَنْ لَا ذِكْرِيَّاتٍ لَهُ فِي مَاضِيهِ ، كَانَ فِي حَاضِرِهِ تَائِهَ الْفِكْرِ ،
شَرِيدَ الْوَجْدَانِ !

هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتُ مِرْآةُ الْمَاضِي ، بَلْ زُبْدَةُ مَا فِيهِ مِنْ كَائِنَاتٍ وَأَحْدَاثٍ .
وَمِنْ طَبِيعَةِ الْمَاضِي أَنْ يَجْلُوَ لَكَ صَفْحَتَهُ نَاصِعَةً تَرَى فِيهَا مَا هُوَ جَمِيلٌ
مُحِبَّبٌ ، وَلَوْ كَانَ فِي حِينِهِ غَيْرَ مُحِبَّبٍ وَلَا جَمِيلٍ !
هَذَا الْمَاضِي يَحْرُسُ دَائِمًا عَلَى أَنْ يُرِيَكَ مَا سَلَفَ مِنْ شَأْنِكَ طَيِّبًا
رَائِعًا ، وَإِنْ كُنْتَ قَدْ لَقِيتَ مِنْ خُطُوبِهِ مَا لَقِيتَ ، وَكَابَدْتَ مِنْ شَرِّهِ
جِسْمًا مِنَ الْأَهْوَالِ .

لَا عَجَبَ فِي أَنْ يَغْدُوَ الْمَاضِي جَمِيلًا ، فَهُوَ ذَاهِبٌ لَا أَوْبَةَ لَهُ وَلَا مَرَدَّ ،
وَلَا اتِّصَالَ لَهُ بِالزَّمَنِ السَّائِرِ مِنْ بَعْدُ . فَنَحْنُ نَتَمَثَّلُ غَيْبَتَهُ ، وَنَأْمَنُ جَانِبَهُ ،
وَلِذَلِكَ نَسْتَشْعِرُ لَهُ عَاطِفَةً مِنَ الْإِعْزَازِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَنَجِدُ لَهُ فِي أَعْمَاقِ
نَفْسِنَا نَوَازِعَ الْحَنِينِ !

إننا في حاضرنا نمحو ما جناه الماضي علينا ، أو نُقل إننا نتغفر لهذا
الماضي سيئاته التي أسلفها إلينا ، فللآمن نار تصهر الأحقاد ، فتصفو
النفوس ، ولا تلبث أن تجنح إلى صفح وغفران .

يَبْدُ أن المرء لا يمنح الماضي هذه الهبة الكريمة من المسامحة ،
إلا إن استيقن أن ذلك الماضي لا سبيل له إلى الرجوع . فلو توقَّع
إيابه لما تعلَّق به ، ولما صبَّت نفسه إليه ، ولما غفر له ما قدَّمت يده
من آثام . . .

إذا عاد الماضي عادت معه سيئاته ، تنفض عنها أكفانها ، وتعلو
بهاماتها ، وتكشف عن أنيابها المسنونة .. وهيئات أن يقع ذلك منا
مَوْقِع الرِّضا والترحاب !

ولكننا نؤمن بأن ذلك الماضي عهدٌ مضى وانقضى ، وأمسٌ أدبر
وتَوَلَّى . فلا ضيرَ علينا في أن نذكره بالخير ، وأن نُؤيِّيه جانبَ الإشفاق .
ولعلنا نُحسُّ ميلاً دفيناً إلى أن نَعزُو المحامدَ إليه ، ونلتمسَ المعاذيرَ
له ، ونتفنَّن في تسويغ ما ساءنا من تصاريفه ، وتهوين ما نابنا من
جرائره .

ما دام الماضي قد انقطع عنا ، فهو حقيقٌ منا بأن نُسبِلَ على ذنوبه
أستارَ المغفرة !

وما دام الماضي غيرَ عائد إلينا ، فهو خَلِيقٌ منا بأن نطوِّى له نفوسنا
على تعلُّق وحنين !

وإن التَّذْكَاراتِ المادِّيةَ لهي أقوى أركان الماضي وأقوم دعائمه . فهي

تشير الذكريات من مرآقدها ، وهى تجسّمها وتبعث الحياة فيها على نحو شائق مُستعذب .

ولقد عرف الناس لهذه التذكارات أثرها البالغ ، فكل امرئ منا يقبل عليها قلّة أو كثرة ، ويعتزُّ بها غلّة أو رخصت ، ويستكثر منها ما وسعته أن يستكثر . . .

وليس تقوّم هذه التذكارات بما تقوّم به الأشياء فى سوق الحياة . فإن تقويمها إنما يكون بما تشير من ذكرى ، وما توحى به من حال . فقد يكون التذكّار صورة على أى نحو ، وقد يكون طرفة فى أى مظهر ، وقد يكون قصاصة من ورق ، أو بقية من قلم ، أو مادون ذلك من عامة الأدوات والأشياء .

وربّ تذكّار هو أهون ما يملك المرء من طُرف وتُحف ، كان هو الفائز بالنصيب الأوفر من الإعزاز . بل لقد يبلغ عند صاحبه مبلغ التقديس . فلو بذلت له أغلى ما فى الدنيا من النفائس بدلاً منه ، لما نزل عنه ، ولما رضى به بديلاً .

وأنا معترف بأنى أحد أولئك الذين يخلصون الماضى وذكرياته بالخط العظيم من التقدير والإهتمام ، وأننى لا آلو جهداً فى الاحتفاظ لنفسى بما يبعث هذا الماضى ، ويشير ما فيه من ذكريات .

فى صومعتى التى أدخلو فيها إلى كتبى وأقلامى وأوراقى شكول من الآثار والتذكّارات ، لكلّ منها فى قلبى مكانته . والكثير منها جمعتُ شتاتاً من مختلف الأصقاع التى كنت أجوزُ بها لمحض الزيارة أو للإستشفاء

تلك الآثار والتذكارات تمثل أطواراً متعددة من حياتي الخاصة . . .
وإني لتقع نظراتي عليها في حُجْرة مكْتَبِي الضيّقة ، فيخيلُ إليَّ أنها
تحتزل العهود ، وتختصر الأزمان ، وتُدْأني بين الأصقاع ؛ وأنها تريني ذلك
كله مضغوطاً مُدْمِجاً ، يبعثُ الماضي أمام عيني حياً في أية ساعة أريد .
ما أقربها شَبَهاً بتلك البلّورة التي تستطيع أن تَلْمَّ ما تشعّت من
شعاع الشمس ، فترَكُزه في مكان محدود ، هو مُلْتَقَى النور .

تحيط بي هذه الآثار والتذكارات ، فكأنني أستعيد رحلاتي الغابرة
في عالم الماضي قريبه وبعيده ، وأجدني أسير فيه على نحو جديد . لأنني
أتصوره بعين اليوم الراهن ، وأنتقل إليه على أجنحة من خيال الحاضر !
وإن هذه الرحلات التي أقوم بها وأنا ساكن في صومعتي ، لهي أطيب
رحلاتي وأوفرها دعةً وطمأنينةً ، فقد برئت من التكاليف وسامت من المشاق .
لا حقائب متاع تُعبَأُ ، ولا جوازات سفر تُهيأُ ، ولا جمارك
أخوض غمراتها على كُرّه ، ولا مرّ كباتٍ أتقل بها غير آمن !
لقد ألفت هذه الرحلات الودعة ، وطابت بها نفسي . فأنا أوثرها
كلما خلوتُ إلى مكْتَبِي ، لأطالع ، أو لأجرى القلم . . .

وأشعر دائماً بأنني أجدد بهذه الرحلات حياتي الراحلة ، وأذهب
بها ما يعتريني من سأم ، وأبث بين جوانحي رُوحاً من الحركة والطواف .
بارك الله في تلك الآثار والتذكارات :

سَجِينَةٌ ، ولكنها تثيرُ الانطلاق !

مُقيمةٌ ، ولكنها أبدأ على سفر !

ثَلَاثَةٌ بِمِثَالِ

من عجيب ما يشعر به الإنسان من شأنه ، أنه قد تجمعه بنوع من
الجمادات جامعة من صفة ، أو مشاركة في عمل ، فإذا الإنسان يكاد يحسُّ
في هذا الجماد خفة الحياة ، ويأنس فيه صبغتها الرفافة ، وإذا هو على مدِّ
الأيام يجد لهذا الجماد في نفسه من وشائج الألفة والود ما يجد للكانن الحي .
إنك تعيش ذلك الجماد الذي تعدّه فاقدًا للحركة والحس ، فلا تلبثُ
على غير تكلفٍ منك أن تستجلى فيه شيئاً وشمائل تختصُّ به . شأنه في
ذلك شأن من تعيش من الأحياء .

هذا الجماد شائق ، خفيف ظله . وذاك ثقيل تنقبض منه نفسك ،
ولا تطيق له مرأى . . .

هذا يبدو كأنما هو ثرثار مملول . وذاك يرعوك دائماً بصمت
مهيّب ، ووقار كريم . . .

هذا تراه خبيثاً خداعاً ، كأنما يمكر بك ، ويطوى أحناءه على
ضعفاته وإيذاء . وذاك يلاقيك صفيهاً نقيّاً ، كأنه صديق خالص الودّ مسماح .
لا يُعيبك أن تجد بين عامة الناس من يتوقّد إحساسه نحو الجماد ،
فيستشعر له ألواناً من العواطف متغايرة بين كراهة وإيثار . وإنك لتراه

يؤثر أو يحفو بيتاً يسكنه ، أو ثوباً يكتسيه ، أو مصباحاً يستضيء به ،
إلى غير ذلك مما يصطنعه في مرافق العيش من أدوات وأسباب .
وليس بدعاً أن يكون الفنانون على وجه عام ، أشدَّ الناس توقُّدَ
إحساس بما للجماذ من كيان . فهم بما أُوتوا من رهافة حسّ وذكاء شعور
لا يفوتهم أن يأنسوا ذيب الحياة فيما دقَّ وجلَّ من رِحاب الكون
الفِصاح ، وأن يتلمَّسوا أشتات الملامح والأشباه في كل ما تقع عليه
أنظارهم من خلق الله !

وربما كان « قلم الكاتب » أيسرَ مثلٍ نضربه . . . فيه يتبدَّى
ذلك الضربُ من إحساس الفنان بالجماذ . فقد تتوثقُ الألفةُ بين الكاتب
وقلمه ، فلا ينبغي بديلاً به ، وإن بلي في يده ، وإن تسنى له أن يتعوَّضَ
منه قلماً أقدرَ على عَوْنِهِ .

إن الكاتب ليكاد يُقْسِمُ غيرَ حانت بأن هذا القلم هو الذي يُمدُّهُ
بأفكاره ، وكأنه جواده المدبَّب ، يجري به طيِّعاً لا يجمَحُ ولا يتأبَّى .
وأما ذلك القلم الآخر فإنه وإن كان في حساب غيره أثمن وأمتن ، فهو
عنده فرسٌ حرْمون ، لا تُؤْتِيهِ عَوْنًا ، ولا تُغْنِيهِ شيئاً .

لا شَطَطَ في القول بأننا نعيشُ بين هذه الجمادات كأننا نعيشُ

بين أحياء !

لك أن تعلِّلَ ذلك بما ينشأ بيننا وبين هذا الجماذ من ألفة . . .
ولغيرك أن يرُدَّ العلة في ذلك إلى أن المرءَ يُفِيضُ من خياله على الجماذ ،
فِيُضْفِي عليه الحياة ، أو مَسْحَةَ الحياة !

ولكن يلوح لى أن الأمر أبعدُ من هذا مَدَى ...
ألا يكون هناك شيء آخر ، لا نُذركَ له كُنْهًا على وجه التحقيق ، هو
الذى يَمْنَحُ الجماد مَظْهَرَ الحياة ، فيجعل له شخصية تميّزه وتدعو إلى إثاره ؟
دَعْنِي من رأى الأقدمين فيما تواضعوا عليه من تعيين الفارق بين
الحَيِّ والجامد ...

بلى دعنى من ذلك التحديد العتيق لمعنى الحياة نفسها .
لقد أرادونا دَهْرًا على أن نؤمنَ بأن كل شيء ينمو ويتحرك بذاته
ويتصرف فى شأنه فذلك هو الشيء الحَيّ . . . وأن كل شيء فاقد النمو
النمو ، ساكن بذاته ، لغير سببٍ عارض ، فقد حُرِمَ حقيقة الحياة
فى طَوْقِكَ الآن أن تقول بأن هذا الرأى قد أصبح غيرَ حَيٍّ ا .
لقد رجع العلم يستأنف النظرَ فيما كان مُقَرَّرًا من الفوارق بين
الأحياء والجمادات ، وهو اليوم ينادى بالشكِّ فيما يمكن أن يُسمّى بالجماد ...
لقد اكتنَّه العلم فى هذا الجماد الذى لا ينمو ولا يتحرك ، أسرارًا تُدْنيه من
مرتبة الحياة ، وتُذهِبُ عنه كثيرًا مما كان بينه وبين الأحياء من فروق .
أين « نقطة البدء » فى الحَيِّ ؟

أليست هذه النقطة تبدأ فى أغوار الجماد ؟
أليس هناك إذن تشابك وتداخل بين الحَيِّ والجامد ، وإن كان
واهنا ، أو حَسْبُنَاهُ غير ماموس ؟

ثَمَّةُ صلة وثيقة بين الأحياء والجمادات ، وإن هذه الصلة لتجعلهما
فى صعيد واحد ، ينبسط عليهما حكم واحد ...

أست ترى العلم اليوم يراول تفسير ذلك التماثل أو التقارب على أساس القوة الكهربائية في بناء المادة حية كانت أو جامدة ؟
ليس العلم قد انتهى إلى أن « الذرة » هي جوهر الموجودات ، وما هذه « الذرة » إلا نظام كهربى ، يماثل فى حركته نظام الأفلاك ؟
هي قوة خفية يطلق عليها العلم فى هذا العصر اسم القوة الكهربائية ، ولا عليك من أن تقول بأنها هي التي يطلق عليها الصوفيون اسم « الروح » .

هذه القوة الكهربائية ، أو هذه القبسة الروحية ، هي ذلك التيار السارى فى بنية الوجود كله . هي ذلك الرباط الذى يصل بين أجزاء الكون عالىة ودانىة . هي ذلك النسب الوثيق بين ما هو على ظهر الأرض المبسوط وما هو فى بطنها الغائر ، لا فرق بين أطباق السماء ، وأعماق الماء !

تلك القوة وحدة لا انفصام لها ، وحدة يندمج فيها كل شيء ، ويحيا بها كل شيء ، وليست هي إلا تلك النفحة العلوية التي هي قبسة من نور الله !

عندى أن هذه القوة هي التي تنفخ من روحها فى هذه الجمادات ، فتحييها شخصيات حية ، وتجعل بيننا وبينها مودة وألفة ، فإذا هي أحياء تطارحها العواطف والمشاعر ، ونحس لها ما نحس للكائن الحي من حب أو كراهية

شد ما تتبادر إلى ذهني هذه الخواطر ، كلما أشرفت على تلك التماثل

الثلاثة ، وهى تَتَبَوُّاُ مقاعدَها من حجرة مكتبى ، فأناجيتها وتناجيني .
لقد كان لكل تمثال منها مناسبة جاءت به ، فهى تشير فى نفسى
خروباً من التذكار . ولكنها جميعاً أصبحت لى من صفوة الأصدقاء ،
أتمثلها إذا غبت عنها ، وأتفقدُها إذا حَلَلْتُ مكانها .
تماثيل ثلاثة . . .

لا أنكرُ أنها من الجماد ، ولكنى أراها من الجماد النابض الحى .
أولها : تمثال للشيطان ، سَمَّهَرِيَّ القَد ، مسنون الوجه ، وصَّاح
القسمات ، كأنه فى احمراره جرة تتصرَّم . وقد أهدى إلى رَيْبَتِهِ :
« بنت الشيطان » .

وثانيها : تمثال ذلك الفرعونى فى جلسته الصخرية الجاسية ، يُخَيِّلُ
إليك أنه يستمرى جلسة الأبد ، لا نَأْمَةً ولا حَرَكَ . وكأنه حيالكَ
مستودعُ أسرار عميقة يَخْشَى عليها أن تُذاع . . . ولقد منحنى فى صمته
ورزائته منحنى المتواضعة : « فرعون الصغير » .

أما ثالثُ التماثيل ، فهو شيخ أعجف ، تجرَّدَ إلا من مِرْقٍ مهلهلة ،
وتجلت عليه سِيما الضراعة . يَمُدُّ يد السؤال بلا ملال ، ولا يفتأ يستقبلنى
بكلمة : « إحسان لله » . . . فأوحت إلى كلمته الواحدة قصة كانت
عنوان كتاب .

وهاهى ذى ثلاثة التماثيل ، تأبى إلا أن تشترك جميعاً فى الإيحاء
إلى هذه السطور !

وَسَائِلُ الْإِلْهَامِ

يَجْلِسُ الْكَاتِبُ إِلَى مَكْتَبِهِ ، وَالْقَلَمُ طَوَّعٌ يَمِينُهُ ، لَا يَدْرِي أَحْيَانًا فِي أَيِّ مَوْضُوعٍ يَكْتُبُ ، فَإِنْ كَانَ الْمَوْضُوعُ نَضَبَ عَيْنِيهِ ، فَرُبَّمَا عَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَمَثَّلَ الْأَفْكَارَ وَالْخَوَاطِرَ الَّتِي تَدْعُمُ مَوْضُوعَهُ ، وَيُخْرِجُهُ فِي إِطَارٍ فَنِّيٍّ شَائِقٍ .

وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ يَرَى نَفْسَهُ مَسْؤُوقًا إِلَى الْإِمْلَاءِ ، يَمْضِي بِقَلَمِهِ أَوْ يَمْضِي بِهِ الْقَلَمُ لَا يَلْوِي وَلَا يَتَعَثَّرُ . وَإِذَا بِأَفْكَارٍ وَخَوَاطِرٍ تَنْشَلُ عَلَيْهِ وَتَنْهَالُ ، حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ لَهَا إِمْسَاكَ إِلَّا بِجُحْدٍ ، وَحَتَّى يَنْضَبَ قَلَمُهُ قَبْلَ أَنْ يَغِيضَ مِنَ الْقَرِيحَةِ فَيَضُهَا الْهَتُونُ .

ذَلِكَ هُوَ مَا نَسَمِيهِ « الْإِلْهَام » ، وَذَلِكَ مَا حَيَّرَ الْإِنْسَانَ مِنْذُ غَابِرِ الزَّمَانِ .

لَقَدْ طَالَتِ الْحَيَرَةُ فِي تَعْلِيلِ هَذَا الْإِلْهَامِ وَتَأْوِيلِهِ ، فَلَمْ يَجِدِ الْعَرَبُ الْقِدَاقِيَّ بُدْءًا مِنَ السُّمُوءِ بِهِ فَوْقَ طَاقَةِ الْبَشَرِ ، وَرَاحُوا يَعَزُّونَ إِلْهَامَ الشُّعْرَاءِ إِلَى قُوَى خَفِيَّةٍ لَا تَنَالُهَا الْعَيُونُ ، فَتَخَيَّلُوا لِكُلِّ شَاعِرٍ تَابِعًا مِنَ الْجِنِّ ، هُوَ شَيْطَانُهُ ، وَهُوَ مَتَّبِعُ الْهَامِ . . .

وَمَا كَانَ بُدْءًا أَنْ يَتَجَهَّ الْعَرَبُ هَذِهِ الْوَجْهَةَ فِي تَفْسِيرِ الْإِلْهَامِ ،

فقد حار الأقدمون من الإغريق حيرة العرب في البادية ، فاتخذوا للشعر
إلهة تمنح الشعراء روائع القصيد .

ولقد ظل الإنسان في هذه الحيرة من أصر الإلهام ، يذهب فيه
مذاهب شتى ، ولكنه على أية حال لا يحسبه إلا باعثاً خارجياً يهبط على
الأذهان مهبط الغيث ، فيحي من هامدٍها ما يُحيي الماء من الأرضِ
الموات .

يبد أن العصر الحديث ، عصر الكشف والتعرف ، عصر التحليل
والتعليل ، أرسل العلم رائداً يستجلي خبايا النفس ، ويفصح عن
سرّ الإلهام

وهذا العلم الجديد ينادى - في ضوء التحليل النفسى - بأن الإلهام
ليس إلا قوة العقل الباطن . ينكشف عنها الغطاء ، فتَمْضى في تدفق
وانطلاق .

ومما يسوقه العلم من شواهد ، أن كثرةً من المفكرين الفنانين
في مختلف النواحي ، يعرض لهم من العقبات ما يتعاصى ، ولا يجدون
لمشكلاتهم من حلول ميسورة ، حتى إذا ملك النوم عيونهم ، تسنى لهم
أن يتخطوا العقبات ، ويتصيّدوا أيسر الحلول ، في عالم الأحلام . . .
ولو تدبرت هذا التفسير العالمى للإلهام ، لألفيته قريباً من تخيل
العرب لشياطين الشعراء . قال عرب كانوا يتمثلون الشاعر وقد حلّ الشيطان
في نفسه ، وتلبّس به ، ليُلهمه ويوحى إليه . وما هذا الشيطان إلا ذلك العقل
الباطن الذى يخترن الأفانين من النزعات والشهوات ومُعقبات الأحداث .

على أن العقل الباطن لا يكشف عن مكنونه ، ولا يفضى بأسراره ،
إلا إذا عمل الفنان على أن يحد من سلطان عقله الواعى ، حتى تأنس
الأفكار الحبيسة بأضواء الحرية ، فتنتلق من قيودها الثقيلة ، على حين
غفلة من ذلك الرقيب العتيد .

فإذا جلس الكاتب ليُملي على قلمه فيض قريحته ، فلا بد له أن
يبتعث الإلهام من مرقده ، لا بد له أن يبتغى الوسيلة التى تُنمى عقله
الواعى ، أو تكفكف من غلوائه ، حتى يظفر بما نلقبه : الخلوة ،
أو الغيبوبة ، أو ساعة الصفاء !

ولقد تعود بعض الكتاب أن يتذرعوا ببعض الوسائل لاجتلاب
تلك الغيبوبة المنشودة ، فكان هذه الوسائل « جواز مرور » للعقل
الباطن . . .

ولشد ما تختلف وسائل الكتاب فى بلوغ تلك الغاية ، ولعل
أكثرها شيوعاً تلك الأشياء التى هى جديرة بأن يطلق عليها اسم
« المنومات » . فمن موسيقى يستمع الفنان إليها ، إلى صور خاصة يتملأها ،
إلى عطر مختار يتنسمه ، إلى شراب أثير عنده يترشفه ، إلى غير ذلك
من الأشياء التى يطمئن بها العقل الباطن إلى أن حارسه الساهر « العقل
الواعى » قد أخذته إغفاءة !

فإن جازى أن أعد نفسى بين من يستثيرون الإلهام من مكانه ،
ويتوددون إليه ، ويتخذون بعض الوسائل فى حمايته من أسباب القلق
والاضطراب ، فإنى أذكر أربعة أشياء ، ألفت أن أجعلها قريبة منى

حين أتناولُ القلمَ ، لتكون « خَطٌّ دفاع » تُعين الخواطر والأفكار على أن تكونَ طليقةً في تحويمها ، آمنةً في سربها ، لا تُفزعُها الطوارئ والعاديات . هذه الأشياء ، هي :

قدَحُ قهوة ، ولفافة تبغ ، وسُبُحَة ، وزجاجة « نشادر » !

يقول لي قدَحُ القهوة :

لا تخشَ خمودَ ذهنك ، فإنِّي رهنُ بَنَانِكَ ، أمدُّكَ بما يُعوِّزُكَ .
حسبُكَ رشفةٌ من رحيقِ تطوفُ بك في آفاقِ رِحاب .

وينتفشُ من لِفافةِ التبغِ دُخانُها العَطر ، فيناجيني بقوله :
لأعليكَ من اضطرابِ أعصابِكَ ، فإنَّ جَذْبَةً واحدةً مني تُردُّ
إليك ما عَزَبَ من طَمَأَينَتِكَ .

وتدنو من يدي حَبَّاتُ السُّبُحَةِ الطَّيِّعَةِ ، هَامِسَةً بقولها :
إن في مُعَابَثَتِكَ لي مهادنةً لحربِ أفكارِكَ . فلتأنسْ إليَّ في الفينة
بعد الفينة ، أداعِبْ أناملَكَ في غيرِ جلبة ولا صُخب ، وأهَبِكَ لحظةَ
راحة وجمَام .

فأما زجاجة « النشادر » فهي الدَّيْدَبَانُ اليَقْظَانُ ، لا تكاد تشعُرُ
بما أعانيه من جَهدٍ وإرهاق ، حتى تبادرَ إليَّ في رِفْقٍ ودَّعة ، فتُنعِشَنِي
بِطِيبِ أنفاسِها الرِّقاق ، ولا تدعني حتى أصيرَ إلى أَمْنٍ وسَلَام .

أَوَّلُ لَمَاءٍ

كان أولُ لقائِي إِيَّاهَا فِي رِحَابِ الصَّحْرَاءِ ، عَنْ كَثَبٍ مِنْ
« مِصْرَ الْجَدِيدَةِ » .

لَمْ أَكُنْ قَدْ تَعْرِفْتُ بِهَا بَعْدُ ، وَإِنْ كُنْتُ قَدْ شَاهَدْتُهَا مِنْ قَبْلُ ،
وَعَلِمْتُ مِنْ أَخْبَارِهَا كُلِّ رَائِعٍ طَرِيفٍ .
مَنْ ذَا الَّذِي يَجْهَلُهَا ؟

مَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَقَعْ بِصَرِّهِ عَلَيْهَا ؟
مَنْ ذَا الَّذِي لَا يُعْجَبُ بِهَا ، وَلَا يَشْعُرُ نَحْوَهَا بِفَيْضٍ مِنَ الرُّوعَةِ السُّحْرِ ؟
إِنَّهَا مِلْءُ الْأَعْيُنِ ، مِلْءُ الْمَسَامِعِ .
كُنَّا لَهَا عَاشِقٌ خَاطِبٌ وَدٌّ ، وَلَكُنَّا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ نَحَازِرُ
وَنَتَحَرَّزُ ، لِمَا نُحِسُّ لَهَا مِنْ تَهَيُّبٍ وَرَهْبَةٍ .

لَيْسَتْ هِيَ بِالطَّيِّعَةِ الذَّلُولِ ، فَصَاحِبَتُهَا مُحْفُوفَةٌ بِالْمَخَاطِرِ ،
وَلَكِنَّهَا مَخَاطِرُ شَائِقَةٌ تَتِيرُ فِي النَّفْسِ الْجَسَّارَةِ وَالْإِقْدَامِ ، وَتُلْهَبُ بَيْنَ
الْجَوَانِحِ نَزْعَةُ الْغَلْبَةِ وَالظَّفَرِ .

وَإِنَّ صَدَاقَتَهَا لَتَكْشِفُ لِمَرْءٍ عَوَالِمَ جَدِيدَةٍ تَنْزُخِرُ بِأَلْوَانِ
مِنَ الرُّوَائِعِ .

وكان منى أن جرؤتُ فرغبتُ إلى بعضِ ذويها في أن يهَيِّ لي موعدًا
أَحْظَى فيه منها بأول لقاء .

وكررت الأيام لا تُنياني طَلَبَتِي ، حتى سَلَوْتُ عنها ، أو تصَنَّعت
أنى سَلَوْتُ . . .

وأسفر صُبْحُ يوم يحمل إلى بُشْرَى اللقاء المنشود ، فانتظمتُ شعور
هو مزاجٌ من خَشْيَةٍ واعتباط .

وتأهبتُ لهذا اللقاء ما وَسِعَنِي التأهب .

وكان الموعدُ رائعًا في مكانه وزمانه :

ساحة الصحراء الرَّحْبَةِ ، قُبَيْلَ مَطْلَعِ الفجر . .

يا له من لقاء عاطفيٍّ خلاب !

أَمْضَيْتُ نهارى جَيَّاش الخاطر ، تلعب بنى الهواجس كلَّ ملعب .

فَسَخِرْتُ من نفسى :

فِيمَ هذا كله ؟

حقًّا إن صداقتى بها المغامرة أَيَّْةُ مغامرة ، ولكن يجب على أن أُقْبِلَ

على هذه المغامرة فى جسارة وتشجع !

بلغتُ المكان فى الموعد المضروب ، فألفيتها فى الانتظار ، وما إن

أخذها بصرى حتى عَرَّتْنِي رِيشة تَزَايِلُ أمامها عَتَادَى من قوة العزيمة
ورباطة الجأش .

ومَثَلْتُ على مقربة منها أواجهها ، وبى من الحيرة والرهبة ما لم

أستطع له دفعا .

لقد كانت قبالي تتألق في الفضاء الطلق ، كأنها الكوكب
الوهَّاج في ظلمة الليل .

كانت في رداءها الفضِّي تتوهَّج ، كأنما هي إلهة من إلهة
الأساطير .

وقفتُ أتوسَّعها خاشعاً ، تتنازعني مشاعرُ الشغف والاستحياء .
لا أنا بقانع منها بتلك النظرة المجردة ، ولا أنا بقادرٍ على أن أخطو
إليها أُبشِّرُها الشوق والحنين .

وقفتُ أتأملُها ملياً أحاول أن أستشِفَّ من مرَّ آها ما تنطوي عليه
نفسها من أسرار ، وما تُكِنُّه من أقدار . . .

كلما أنعمتُ النظر فيها أحسستُ قوةً تجتذني إليها ، قوةً مغنطيسيةً
تشيّعُ من كيائها ، محيطَةٌ بي ، لا أستطيعُ منها الفكَّك .

ها هي ذي المغامرة قد بدأت واستبانت بواذرها .
خيِّلَ إلى أن ابتساماً وضاحاً تتخايل على ثغرها .

أهي ابتساماً انتصار أم هي ابتساماً إشفاق أم هي ابتساماً إزراء ؟
وقع في روعي أني أسمع هممةً منها .

أشرعتُ تتكلم ؟ . . .

أرهفتُ السمع مُهتاجَ الفؤاد ، وتجلَّى لي أن ثمة صوتاً مألوفاً به
شبهاً بوسوسة الزهر يتفتَّح للطلل .

كأنما سمعتها تقول :

حتى متى وقوفك ؟

واختلجت شفتاي أقول :

لست أدري !

— ألم ترغب في صداقتي ؟

— إني في هذه اللحظة أشدُّ رغبة !

— إذن تقدم وكن جسورا . ما فتىء الناس يُذيعُونَ عني ما ينفُتُ

الرعب في القلوب ، وما زالوا يزعمون أنني أرمي بهم في مهالك .

— ما أحلاها من مهالك !

— إني مُصْطَحِبُّكَ إلى مجهولٍ قَصِيٍّ ، قد لا تطيبُ به نفسا

— حسبي أنك رائدتني إليه . . . شدَّ ما أنا شَيِّقٌ إلى اكتناه هذا

المجهول في صُحْبَتِكَ !

— أسرع إذن إلىَّ قبل أن يبددَ الفجرُ متعةَ هذا اللقاء ، وتذيعَ

أشعةَ الشمسِ برَّ تلكِ المناجاة !

وبسطت ذراعيها الوضاءَ تئنُّ لي ، فألفيتني مُقبلاً عليها ، مرتعياً

في حِضْنِهَا ، كما يُقبِلُ الفَرْخُ على حِضْنِ أُمِّهِ يلتمسُ الدَّفءَ والحنان !

فطَوَّقَتْنِي بذراعيها الفضيتين في تَرْفُقٍ وحنوٍّ ، وما هي إلا أن

أحسستُ بها تعلو بي عن أديم الأرض ، وإذا بها تمضي بي صُعُداً تشقُّ

أجوازَ الفضاء ، وهي تطلق في السماء دويَّ الظفر والانتصار .

ذلك كان أولَ لقاءٍ بيني وبين صديقتي . . . « الطائفة » في رحلتي

الأولى إلى العالم الجديد !

أَحَبُّ الْعَاشِقِينَ إِلَى

سُئِلْتُ يَوْمًا :

مَنْ أَحَبُّ الْعَاشِقِينَ إِلَى ؟

وقد دعاني ذلك إلى أن أُجِيبَ الطَّرْفَ في ذلك الحشد الزاخر ممن
هَتَفَ بِأَسْمَائِهِمُ التَّارِيخَ ، وسَجَّلَ رَوَائِعَ غَرَامِهِمْ بَيْنَ صَمَائِفِ الْخَالِدَاتِ ...
فهناك « روميو » الذي يمثل المأساة الدامية في الحب ، والذي يُعَدُّ
أَرْوَاعَ مِثْلٍ لِلْفِدَاءِ .

وهنا « قَيْسُ » صاحبُ « لَيْلَى » الذي يمثل العشق العذري ،
أو الحبَّ المجنون .

وثمة « أَنْطُونِيو » ذلك الذي كان أحرصَ ما يكون على الاعتصار
والاستمتاع ، ما وَجَدَ إلى ذلك السبيل .

وهل نَدَسَى « عُمَرَ بْنَ أَبِي رِيعة » الذي يمثل الحبَّ الثرثار ،
يَنْشُدُ فِيهِ طَيْفَ الْمَرَأَةِ آيَةً كَانَتْ ؟

وفي التَّارِيخِ قَرِيبُهُ وَبَعِيدُهُ شُكُولُ وَأَفَانِينَ مِنَ الْعُشَّاقِ وَالْمَحْبِبِّينَ ،
يَخْتَلِفُونَ فِي شَخْصِيَّاتِهِمْ ، وَيَتَّبَعُونَ فِي مَهْوَى أَفئدتهم .

فأيُّ هؤلاء أَحَقُّ بِالِإِثَارِ ؟ وَأَيُّهُمْ أَوْلَى بِالِإِشَادَةِ وَالِإِغْلَاءِ ؟

من منهم أجدرُ بأن يتسلَّم رايةَ البطولة في ميدان الآهات
والزَّفَرات ؟

جعلتُ أعرَض الأسماء ، وأتعرَّف الشخصيات ، وأتسمَّع المناجيات .
وبغتةً وقفتُ . .

فقد تخايل لي شَبَّحُ جَبَّارُ القامة ، قَوِيُّ العضل ، وافيُّ الجُسمان .
ولقد راح يتقدَّم مني متزن الخطا ، عليه سيماءُ الترفع والعزة ، تتراعى
منه جبهة عريضة تتدلَّى عليها خُصَلات شعرٍ أسحَمَ غزير . . . فراغني
منه أنه عارى الجسد ، إلا من جلودٍ تَسْتُرُ بعضَ أوصاله !

لاح لي هذا الشَّبَّحُ الجبار الكريمُ المنضر ، وعلى وجهه ابتسامة ،
وجعل يَبْعَثُ إلى نظراته ، وهو يعبثُ بلحيته المُشدَّبة ، كأنه يقول لي :
أين مكاني بين من تَخَيَّرتَ من صفوة العشاق ؟

لحقاً لستُ أدري كيف فاتني أن أذكره . . . وهو البطل الأول ،
والزعيم المقدم ، لا دفاع ولا نزاع ؟

إنه فرْدٌ فذٌّ ، يُعَدِّلُ بقصبة غرامه ألوفَ المغرَمين على تعاقبِ
لأحقاب !

إنهم حين يُوزَنُون به يَبْدُون أقزاماً ضئيلاً ، هيهات أن يقومَ لهم
حساب بجانب عملاقِ العماليق !

وكيف لا يكون ذلك وهو الرأس ، وهم الأذنان ؟
وكيف يقوم في ذلك خلاف وهو الجذع الركين ، وهم الأفئدة
المهازِيل ؟

هو الرائد السَّبَّاق ...

هو واضع أسِّ الحبِّ لبني البشر ...

هو مَنْ شَرَعَ ذلك الشَّرْع ، وسنَّ ذلك القانون ...

هو مَنْ عَبَّدَ الطريقَ لكلِّ سالكٍ بعده ، متأثِّرٌ خُطاه .

هو الذي تَلَقَّتْ في قلبه كلُّ أفانين الحبِّ ، مِنْ عُذْرِيٍّ ، وصوفيٍّ ،

وجَسَدِيٍّ ...

هو الذي بذل في سبيل حُبِّه أَكْبَرَ فِدَاءٍ لا يملك أن يبذله غيره ...

لولا حُبُّه هذا لما كان للبشرية كِيَان !

لقد أَحَبَّ في دنياه الصغيرة التي لم تكن تحوى إلا قلبَيْن اثنين ،

تخلق من هذه الدنيا المحدودة عالمًا رحيبًا الأكناف يزخر بألوف

المحبين !

لكأنه قد أراد أن يجعل الحبَّ حقيقة خالدة يتوارثها خالف عن

سالف ، فألقى الغِرَّاس ، وَبَذَرَ الحَبَّ ، وأحسن السَّقْيَا . وظلَّ يتعهدُ

الزَّرْعَ حتى نَمَّوا واكتمل ، وآتَى أَكْلَهُ ، ومازال يُؤْتِيهِ طَيِّبَ الثمرات .

ربما كان في ذلك على خطأ ، وربما كان على صواب .

مهما يكن من رأى ، فما كان في وَسْعِهِ أن يَعْدُوَ مَا فعل ...

وهل كان في مُسْتَطَاعِهِ أن يتطهَّر من شوائب الخطيئة ، وهو

ابنُ طِينٍ وماء ؟ !

مايسوغ لى الآن ، وقد وَضَحَ لى ذلك الوجهُ الكريم ، إلا أن

أَجَعَلَهُ هو موقع الاختيار .

ذلك الذى باع النعيم المُلَوَّى ، سَهِيًّا إلى اكتناه سرِّ الحياة الأُزلية
على ظهر هذه الأرض .

ذلك الذى هو صاحبُ التجربة الأولى فى الحبِّ ، وصاحب القِدْحِ
المُعَلَّى فى الفِداء .

ذلك هو أبو البشر : « آدم » !
غَفَرَ اللهُ لَهُ ، وأَعَانَنَا على احتمالِ ما تَرَكَه لنا من ذلك التُّرَاثِ
المُخَالِدِ الجَسِيمِ ...

أَنْتَ فِي نَفْسِكَ دَوْلَةٌ

قد تكون ممن يستهوى نفوسهم رفيع المنصب ، ويختاب أنظارهم بريق الجاه ، فتحلم أن تكون وزيراً . . . أن تكون لك تلك المكانة المرموقة التي ما زالت تظفر بأسمى الاعتبار .

ولكن يفوتك دسّت الوزارة ، فلا تلبث أن تذهب نفسك حسرة على ما فاتك ، وتعصّ بنان الندم على تقصيرك في التحيل والتوسّل لبلوغ هذه المأربة .

وربما حايبت نفسك ، وترفعت بها عن اللوم والتعنيف . فانبريت تصبّ على القدر جام غضبك ، وتُنزلُ به جاحم ثورتك . ترى أنه قد مكر بك ، وكاد لك ، فحرمك أن تتبوأ هذا المنصب الخطير ، لتأمر وتنهي ، وتُعزّ وتُدلّ ، وتستمتع بأن تُبرّقش الأوراق بإمضائك الكريم ، وتتلقّى من أعوانك ووفود بابك ألوان التحايا والحفافات ، ومن حاشيتك وأحراسك ضروب التبجيل والإعظام . يزجّونك بذلك كله ، كلها انثيت انثناء ، أو أومات إيماء !

فيا صاحبي :

لا عليك . . . ليس في الأمر ما يستوجب التحشّر ، فإني كاشف لك

الغطاء عن شئ غاب عنك ، أو سهوت عنه ، وأنت واجدٌ فيه ما تحلم به ،
وتطمح إليه . وهو منك على مقربة ، بل إنه موصول بك أوثق صلة ،
فما هو إلا حقيقة واقعة تمارسها في حياتك ، وإن لم تكن منها على علم .
أنا زعيم لك بأنك مستمتعٌ بالمنصب الوزاري في أوسع نطاق .
فأنت لست صاحبَ وزارة واحدة ، وإنما أنت تهيمنُ على وزاراتٍ شتى
ليست أهونَ شأنًا من تلك التي تراها قائمةً في نظام الحكم .
أما دار بخاطرك أنك أنت في نفسك دولة . . . دولة مستقلة
ذات سيادة ؟

أما فكرت في نفسك : كيف أن الله أودعك من القوى الظاهرة
والباطنة ما يجعل منك حكومة قائمة ، لها كل خصائص الحكومات
في كبرى الدول ؟

أنت مملكة ! . . . وما رأسك إلا ديوان الحكم ، فيه تلتقي شتى
الوزارات . والفارق بينك وبين حكومات الأمم أن مجلس الوزراء فيها
غير وطيد الدعائم ، فإنه لتعصف به الرياح بين عشية وضحاها ، طوعاً
لتقلبات السياسة ، وطوارئ الأحداث . على حين أن مجلس وزرائك
دائم وثيق : وُلد معك ، ونما في ظلك ، وسيلازمك ما حييت !

تبصر في أمرك قليلاً ، يتبين لك أني لا ألقو ، ولا أغلو . . . وأنت
ذو مملكة عريضة الجنبات ، معقدة المرافق . ليس في طوقك أن
تستكنه دقائقها إلا إن استعنت على ذلك بمجهرٍ يحلو من الأشياء
ما تناهى في الصغر . . . ولعل أكبر مجهرٍ يعيناً بأن يُريك ما كمن من

الدقائق في أعماق مملكته البعيدة الأغوار !
أنت في حقيقة نفسك كَوْنٌ عجيب ، لم يُكشَفْ منه إلا أهْوَنُ
ما فيه . . . فأما ما وراء المعلوم فهو غابات وأحراج ، مجاهِلٌ تحوم حولها
الظنون والأوهام حَيْرَى لا تطمئن إلى يقين . . . وإن هذه المجاهل
لتنطوي على كنوز عذراء بعيدة عن منال العيون ، قُوَى هائلة لو أُتيح
استغلالها يوماً لكان منها آياتٌ ومعجزات ! . . .
في رأسك العامر تتسامق أبنية عظيمة تزدهم بها الأركان ، وماهى
إلا دواوين الوزارات في دولتك الكريمة . . .
لقد تميّزت في رأسك مناطق ، لكل منها اختصاصٌ بجانبٍ من
مرافق الحكم ، ولكلٍّ منها نفوذ وسلطان على سائر الجسد .
ودونك بعض ما تُعانيه من العبء الذى يضطلع به رأسك ، إذ
يسوس هذه الدولة ، ويهيمن على مصايرها الجسام . . .
أرأيت إلى نفسك ، وقد نَقَمْتَ على أحدٍ في بعض شأنك ، فثارت
ثأرتك ؟ . . . أأست في هذه اللحظة كأنك قد عَقَدْتَ « هيئة أركان
حربك » في وزارة دفاعك ، وَغَبَّاتَ جُنْدَكَ في أتمَّ أهبة وعَتَاد ، لتقوم
بتدبير أمرك في الهجوم والكفاح ؟ !
أرأيت إلى نفسك ، وقد تَحَرَّجْتَ بك الأمور ، ودنا الخطر من
مخالف مرافق عيشك ؟ . . . أأست في هذه الحالة كأنك قد أعلنت
« الأحكام العرفية » في دولتك . فسَنَنْتَ النظم ، وشرَعْتَ الخطط ، على
أساس من الحرمان والتحوُّط ، إنقاذاً للموقف ، وارتقاباً لا انفراج الأزمة ؟

ولعل الفردَ كانَ أُسبقَ من الأُمِّ تَفْطُنًا إلى إنْشاءِ تلكِ الوزارةِ التي لها خطرُها البالغُ ، ألا وهي وزارةُ « الدَّعَايةِ » . . . فإنَّ لهذه الوزارةِ حُظُوَّةً في مملكتك ، وإنَّ لها في رأسك مكانةَ الصدرِ بينِ الوزاراتِ . وأبرزُ عملٍ لتلكِ الوزارةِ الخطيرةُ ، هو الإشرافُ على صحيفتك الشخصية . وما صحيفتك هذه إلا تلكِ القطعة الطويلة الملساء التي تعمُرُ ما بين شدِّقيك ، ويطلقون عليها اسمَ : « اللِّسان » ! . . .

ولطالما شاع في مملكتك الإضطرابُ ، واسترخى فيها حبلُ الأمنِ ، وتعمَّدتُ فيها السياسةُ الداخليةُ والخارجيةُ ، من جرائرِ ذلكِ « اللسان » الجمَّوحِ الذي لا يهدأُ له صخبٌ ولا ضجيج . فلا يكونُ لمجلسِ وزرائك همٌّ إلا فرضُ الرقابةِ تِلْوَ الرقابةِ على ذلكِ الطاغية اللُّجُوجِ ، وإصلاحِ ما أفسده بثرثرته ولجاجته !

وَمَثَلَةٌ في دولتكِ وزارةٌ شَدَّتْ عن سائرِ وزاراتك ، فانتبذت منها مكانًا قَصِيًّا ، ولم ترَضَ بالرأسِ مسكنًا ، ولا بالعقلِ جِوَارًا . فأثرتُ أن تتخذَ الجوانحَ مَثَابَةً ومَثْوًى ، فتربعتُ في مناطقها جميعًا . وأعنى بها وزارةُ « القلب » . وهي وزارةُ مُتَرَفَةٍ مُرْهَفَةٍ ، حَسَّاسَةٌ أُلُوفٌ ، فيها تلتقي الأهواءُ الطليقةُ ، وتتوهَّجُ العواطفُ الشاعرةُ . وإنَّها لمَسْرَحٌ تتراءى عليه الأخيلةُ والأحلامُ . . .

ولهذه الوزارةُ شِبْهُ استقلالٍ يثيرُ بينها وبين سائرِ الوزاراتِ ضروبًا من المشكلاتِ ، أساسُها تنازُعُ الاختصاصِ !
وَبَدِيهَةٌ أنَّ تكونَ أشدُّ الوزاراتِ خصومةً لها ، وأعنفُها نزاعًا

معه ، هي وزارة ما ليّتك ، فإن وزارة القلب في ترفّها وسرّفها لا تحرص
على توازن ، ولا تُبقي على مدّخر !

ولست تدري كيف تفرّدت وزارة القلب بذلك المكان القصي ،
وكيف غنمت منك الاستقلال والتحرّر . وأكبر الظن أنها كانت
تأخذ مكانها بين سائر الوزارات في رأسك العاصم ، ولكنها لم تطب
نفساً بتلك القيود والنظم ، وصاقت ذرعاً بما يتخلّق حولها من عيون
وأرصاد ، فتسلّلت إلى هذه المنطقة الخفاقة تلمس الطلاقة والأمان ! .
أبعد هذا كله تمدّ عينك إلى تلك المناصب الوزارية الموقوتة التي
هي رهن الأحوال والملايسات ؟ .

أليست نفسك أولى بك ؟
أليست دولتك الشخصية جديرة أن تشغلك عن علّيا المناصب ؟
لعمرك لو حبست جهودك في نطاق أمرك ، فأحكمت تدبير
مشكلاتك على اختلاف مناحيها ، وتشعب مراميها ، لاستشعرت
نشوة السعادة الحقّة التي هي أثمن ما في الحياة

لعمرك لو بلغت من ذلك مأربك ، وألقيت على نفسك نظرة ،
فرأيت شيوع الرخاء والطمأنينة في خاصّة شأنك ، لهان في عينيك
ذلك البريق الخلاب الذي يخطف أبصار الناس من جاه وسلطان ! .

لِلْمَرْءِ أذنان

نحن في عصرٍ تَمُوجُ فيه الأفكارُ أيَّما مَوْجٍ ، وتتناوَحُ الخواطرُ
يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، لا تكاد تَطْمِئُنُّ فيه النفوسُ إلى مَذْهَبٍ من مذاهبِ
الحياة ، أو تستقرُّ على وَضْعٍ من أوضاعِ المجتمعِ . . . فالعقولُ تتصارَعُ ،
والمذاهبُ تتطاحنُ ، والآراءُ تتخالفُ . والناسُ في فورةٍ ذلك الصِّراعِ
الدائبِ قَلِقُونَ حَيَارَى . . .

لا عَجَبَ إِذْنًا أن يَتَمَيَّزَ عَصْرُنَا الحاضرُ بأنه عصرُ المناقشةِ والحِوَارِ ،
فيه تتعدَّدُ المؤتمراتُ ، وتَعْمُرُ المنابرُ بالخطباءِ ، وتكثرُ الجلساتُ تحتَ
قبةِ البرلمانِ ، وتتوالى اللجانُ في الوزاراتِ والهيئاتِ . . .

وهذا كله فوقَ ما تحفِلُ به المجالسُ والحلقاتُ في المَشَارِبِ والأنديةِ
من جَلَّاجَةٍ في الحديثِ ، وتجاذِبٍ لأطرافِ الجدالِ .

حتى إن هذه الظاهرةَ لتأخُذُ طريقَهَا إلى أخفى الزوايا في المنازلِ
والأسْرِ ، فتبدِّلُ أَمْنَهَا قَلَقًا ، وسكينةَها ثورةً واضطرابًا .

وقد كانَ من أثرِ ذلك في نفسى أن جعلتُ أفكَّرُ في فلسفةِ التكلمِ
والإصغاءِ ، أو بتعبيرٍ آخرَ : فلسفةِ اللسانِ والأذنينِ !

وعلى الرغمِ مما أعملتُ من فكري ، فإن الفضلَ فيما انتهيتُ إليه

من رأي يرجعُ إلى بَطْلِنَا الحُمُولِ الصَّبُورِ المُفْتَرَى عليه ، صديقنا
« الحِمَارِ » . . . هذه الشخصية الفذة المجحودِ جميلها على بنى الإنسان !
ولعلك سائلي :

ما وجهُ العلاقة بين هذا الصديق وبين فلسفة اللسان والأذنين ؟
ليست العلاقة التي أراها وَهْمًا ولا كَذِبًا ، فاصبرْ صبراً جميلاً حتى
يأتيكَ الخبرُ اليقين .

تبارك الله أحسنُ الخالقين !

لقد خلق الإنسان في أحسنِ تقويم . . .
خالقه فَقَدَره ، ولم يجعل تركيبه عَبَثًا ، وليس يُعَوِّزُنَا إلا أن نتبين
حِكْمَةَ ذلك الخلق ، وأن نهتدي إلى أسرارِ ذلك التركيب ، حتى نعرف
لكل شيء حقه ، ونتجه به وَجْهَتَهُ ، فلا نضلَّ في ذلك سواء السبيل .
أمامنا جسمُ الإنسان ، رُكِّبَتْ فيه عَيْنَان ، ويدان ، وساقان . على
حين أن فيه قلباً واحداً ، ولساناً واحداً ، ورأساً واحداً .
ولم يكن ذلك عَفْوَاً لغيرِ عِلَّة . . .

أولُ ما يُلَوِّح لك من سرِّ هذا التقويم أنه آيةُ التناسُقِ والإنسِجَامِ ،
أعني تدبيرَ النَّسَبِ بين الأوصال ، طَوْعاً لفنِّ الجمال .

ولكنَّ أعظمَ السَّرِّ في ذلك التقويم ، هو الفائدةُ التي يُجْنِيها المرءُ منه . . .
للمرءِ قَدَمَان ، ولو كانت له قَدَمٌ واحدة لما استطاع السيرَ إلا
تواثباً ، ولما توافرَ له من السكرِّ والفرِّ ما يتوافرُ له بقدمين اثنتين !
وللمرءِ يَدَان ، وفي المثل : « يَدٌ واحدة لا تُصَفِّق » . فكلتا اليَدَيْنِ

عَوْنُ الْآخَرَى عَلَى بُلُوغِ الْمَآرِبِ ، وَعَلَى التَّوَقُّيِّ مِنَ الْمَكَارِهِ .

فَلَمَّاذَا كَانَ الْإِنْسَانُ ذَا لِسَانٍ وَاحِدٍ ؟

بَدِيهَةٌ أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ أَشْفَقَ عَلَى النَّاسِ مِنَ النَّاسِ ، حِينَ اخْتَارَ لَهُمْ هَذَا التَّقْوِيمَ الْحَكِيمَ . فَلَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ لِسَانَانِ لَجَرَى مِنَ الْمَصَائِبِ مَا لَا يَدُورُ فِي حِسْبَانٍ ، فَإِنْ لِسَانًا وَاحِدًا جَرَّ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ مَا تُعَانِي مِنْ أَذِيَّةٍ وَشَقَاءٍ ، فَكَيْفَ تَكُونُ الْحَالُ إِنْ أَعَانَهُ لِسَانٌ آخَرُ فِي رُكُوبِ تِلْكَ الْمَصَائِبِ ، وَخَوْضِ تِلْكَ الْغَمَرَاتِ ؟ .

وَلَمَّاذَا كَانَ الْإِنْسَانُ أُذُنَانِ ؟ .

يَرَى أَهْلُ الرَّأْيِ أَنَّ الْمَرْءَ أَحْوَجُ إِلَى أَنْ يُصْنَعَ مِنْهُ إِلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ ، وَإِنْ أُذُنَيْنِ اثْنَتَيْنِ هُمَا أَقْدَرُ عَلَى الْإِسْتِيعَابِ ، وَأَصْبَرُ عَلَى الْإِضْغَاءِ مِنْ أُذُنٍ وَاحِدَةٍ .

وَلَكِنْ ازْدِيَادَ الْهَرَاءِ وَتَوَاصُلَ الثَّرَثَةِ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ مِنْ حَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ لَيَدْعُونَا إِلَى أَنْ نُعِيدَ النَّظَرَ فِي فَائِدَةِ الْأُذُنَيْنِ ، وَأَنْ نُخَضِّعَ السَّمْعَ لوظيفةٍ أُخْرَى .

لَقَدْ اهْتَدَى صَدِيقُنَا « الْحِمَارُ » إِلَى ذَلِكَ مِنْذُ عَهْدٍ عَهِيدٍ . إِذْ فَهِمَ أَنَّ الْحَدِيثَ أَغْلَبُهُ لَفْوٌ ، وَأَنَّ الْكَلَامَ قَلِيلُهُ خَيْرٌ وَكَثِيرُهُ لَآخِرٌ فِيهِ ، فَعَمِيَ بِتَطْوِيلِ أُذُنِيهِ لوظيفةٍ أَجَلَ مِنَ السَّمْعِ وَأَجْدَى . قَسَمَ « الْحِمَارُ » سَمْعَهُ قَسَمَيْنِ ، فَجَعَلَ لِإِسْتِقْبَالِ الْحَدِيثِ أُذُنًا ، وَلِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ أُخْرَى .

الْأُذُنُ الْأُولَى لِلتَّرُودِ وَالْإِسْتِيعَابِ ، وَالْأُذُنُ الْآخَرَى كَالْمِصْفَاقِ ،

أو كَصِمَامِ الأَمْنِ ، أو كَالْمِدْخَلِ لإِطْلَاقِ مَا لَاحَاجَةُ بِهِ مِنَ البُخَارِ الحَبِيسِ .
فَطَنَّ الصَّدِيقُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ مِنْذُ الْقَدِيمِ ، فَتَكَيَّفَتْ أُذُنُهُ
طَوْعًا لِلْحَرَكَةِ الدَائِبَةِ مِنَ الإِسْتِيعَابِ وَالتَّخْلُصِ ، وَوَفَّقًا لِنَظَرِيَةِ التَّطَوُّرِ
الْقَائِلَةِ بِأَنَّ الضَّرُورَةَ تَصْنَعُ العُضْوَ . . . وَلِذَلِكَ اسْتِطَالَتْ أُذُنَاهُ ، لِلْمَرَانَةِ
المَوْصُولَةِ وَالْيَقَظَةِ الدَّائِمَةِ فِي الإِسْتِقْبَالِ وَالْإِرْسَالِ !

وَإِنِّي أَزْعُمُ مَا وَسِعَنِي الزَّعْمُ أَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ أَسْعَدُ خَلَقِ اللَّهِ بِاهْتِدَائِهِ
إِلَى اسْتِخْدَامِ أُذُنَيْهِ عَلَى هَذَا الْوَضْعِ الْحَمِيدِ .

وَلَيْسَ أَدَلٌّ عَلَى سَعَادَتِهِ مِنْ طُمَأْنِينَةِ الرِّضَا السَّابِغَةِ عَلَيْهِ ، وَمِنْ
تِلْكَ النِّظَرَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ الَّتِي يَدِيرُ بِهَا عَيْنَيْهِ فِي مِحْجَرِيهِ ، مُطِيفًا بِمَنْ حَوْلَهُ
فِي سَخَرِيَّةٍ وَاسْتِخْفَافٍ .

إِنْ صَدِيقُنَا ذَا الْأُذُنَيْنِ الطَّوِيلَتَيْنِ لَا يُضِيرُهُ أَنْ يُصْغِيَ وَيُصْغَى ،
مَا دَامَتْ إِحْدَى أُذُنَيْهِ صِمَامًا أَمَّنْ ، عَلَى أَهْبَةِ الإِسْتِعْدَادِ لِلطَّرْحِ وَالنَّبْذِ .
فَهُوَ بِمَنْجَاةٍ مِنْ احْتِبَاسِ الْحَدِيثِ ، وَتَرَسُّبِ اللُّغُو . هِيَاهُ أَنْ يَضِيقَ
صَدْرُهُ يَوْمًا بِمَا يَبْلُغُ سَمْعَهُ مِنْ قَوْلٍ غَلِيظٍ . . .

وَأَمَانَةُ النَّصِيحِ تَقْتَضِيهِ أَنْ أُوصِيَ بِاِقْتِبَاسِ هَذِهِ الْحِكْمَةِ الْغَالِيَةِ مِنْ
صَدِيقِنَا « الْحِمَارِ » . . . فَلَوْ فَعَلْنَا لَاسْتَقَامَتْ لَنَا الْحَيَاةُ فِي كَثِيرٍ مِنْ
صُورِهَا وَمُظَاهَرِهَا !

وَأَنَا مُوقِنٌ بِأَنَّ أَكْبَرَ خِلَافَاتِ الْأَحْزَابِ ، وَمُشْكَلَاتِ الطَّوَائِفِ
وَالْهَيْئَاتِ ، سَتَذُوبُ وَلَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ إِنْ جَعَلْنَا إِحْدَى الْأُذُنَيْنِ لَاسْتِقْبَالِ
مَا يُقَالُ ، وَالْأُخْرَى لِلنَّبْذِ وَالْإِطْرَاحِ .

والعالمُ اليومَ يزخرُ بأمواجٍ من الدعاياتِ المَهْوَشَةِ تُسَلِّمُ الرؤسَ إلى
دُورٍ ، وتؤدِّي بالشعوب إلى ثورة وهياج ... فما أحرَّانا أن نتخلصَ
من هذا الأثر السيِّئ ، باتخاذِ ذلك الأسلوبِ الحِمَارِيِّ الحَصِيفِ !
كلما استطالتِ الأذنُ كان ذلك مَدْعَاةً إلى الراحةِ والطمانينةِ
وهُدوءِ البال ...

فإذا أردتَ أن تعيشَ في بيتك ، وفي مَدَارِ عملك ، وفي مَنهَجِ
خُطاك ، بارتئًا هانئًا ، فلا تجعلْ أذنيك كِلْتَيْهِمَا جِهَازَ اسْتِقْبَالٍ فحسب ،
ولكن عَوِّدْ إحداها أن تكونَ جِهَازَ إرسالٍ !
لستُ أقولُ لك كما يقولُ الدُّعاءُ المَمْلُولُ :

أطال الله عُمرَكَ ...

وإنما أقولُ لك مُخْلِصًا :

أطال الله أذنيكَ !

أَعْدَاءُ ثَلَاثَةٍ

أَعْدَاءُ الْإِنْسَانِيَةِ كَثِيرٌ ، وَصَوَّلَتْهَا فِي مَمْلَكَةِ الشَّرِّ قَائِدَةٌ عَلَى قَدَمٍ
وَسَاقٍ . وَإِنَّمَا لَتَعَيَّتْ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا مَا وَسِعَهَا أَنْ تَعَيَّتْ .
وَمِنْذَ نَجَمَتْ هَذِهِ الْأَعْدَاءُ قَامَ فِي وَجْهِهَا دُعَاةُ الْخَيْرِ ، وَأَخْلَافُ
الْفَضِيلَةِ ، يَحْدُثُونَ مِنْ عُدُوَانِهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَيَكْفُونَ أَذَاهَا عَنِ النَّاسِ .
وَمَا بَرَحَتْ أَسْمَاعُنَا تَهْزُهَا أَصْدَاءُ الْحِمْلَةِ عَلَى ثَلَاثَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْدَاءِ ،
أَوْغَلَتْ فِي الْبَغْيِ ، وَأَمَعَنْتْ فِي الشَّرِّ ، فَتَهَضُّ لَهَا قَادَةُ الْأُمَّةِ يَشْنُونُ
عَلَيْهَا غَارَةً شَعْوَاءَ تِلْكَ هِيَ : تَأَلُّوثُ الْفَقْرِ وَالْجَهْلِ وَالْمَرَضِ .
وَلَيْسَ يُنْكَرُ أَحَدٌ مَا لِهَذَا الثَّالُوثِ الْكَرِيهِ مِنْ جَسِيمِ الْخَطَرِ ،
فِيَالِيهِ مَرَدُّ مَا تُعَانِيهِ الْأُمَّةُ مِنْ آلامِ شِدَادٍ ، وَمَا يَعْتَاقُ خُطَايَاهَا إِلَى الْأَمَامِ
مِنْ عَقَبَاتٍ صِعَابٍ .

يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْأَعْدَاءَ الثَّلَاثَةَ عَلَى جَسَامَةِ خَطَرِهَا تَبْرُزُ فِي الْمَعْسُكِرِ
الْمَادِيِّ لِلْعِيَانِ ، وَتُعْنِي فِي مُحَارِبَتِهَا عُدَّةٌ حَازِمَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الْاِقْتِصَادِ .
فَمَا أَشْبَهَهَا بِالْقُرُوحِ الظَّاهِرَةِ : دَاوُّهَا مَكْشُوفٌ ، وَدَوَاوُهَا مَعْرُوفٌ .
إِذَا أَنْتَ أَخَذْتَ فِيهَا بِأَسْبَابِ الْعِلَاجِ ، خَيْرَ آبَةٍ ، مُحْكَمًا لَهُ ، كَانَ لَكَ
أَنْ تَسْتَقْبَلَ طَلَائِعَ الشِّفَاءِ .

وثمة في حياتنا العامة أعداء باطنة تكمن في دخيلة النفوس ، ويسرى أذاها في المجتمع مسرى الدِّم في المروق . وهذه الأعداء المعنوية هي التي يتعذر التخلص منها إلا بجهد ورياضة ومعاناة .

ومما لا ريب فيه أن المعنويات هي الأساس في سعادة الإنسان ، فكما صاغت المعنويات أفاضت من صلاحها على الماديات .

ليست تلك المعنويات إلا الروح ، وإذا قويت طاقات الروح لم تقوَ عقبة على أن يبتقى لها سلطان .

متى توافرت للنفس عقيدة وإيمان مضت في طريقها تشققة ، حتى ترؤعك من أعمالها بالمعجزات .

أفي مستطاع امرئ أن يسعى إلى مصاولة أعداء الإنسانية في المعسكر المادى ، دون أن يكون مدفوعاً إلى ذلك بعامل نفسى قوى موصول بحب الخير ؟ .

إن العالم يدين برفاهيته ، وبشُمول الخيرات فيه ، لقوى نفسية اتخذت من المثل العليا رائدها في الطريق ، فأحببت الخير وعمدته عليه ، وبذلت جهدها له ، حتى بلغت ما تريد .

المعنويات إذن هي نواة الرقى المادى . فإذا شئنا أن نُعلي من شأن الماديات في حياتنا العامة ، فعلينا أولاً أن نجند قوى النفوس للتخلص من أمراض النفوس .

ويلوح لى أن أعداء الإنسانية في المعسكر النفسى ، ثلاثة .
الحسد ، والبُغْض ، والحقد .

وإن شئت قلت : إنه عدو واحد ، يتشكل في ثلاثة أطوار من حياته . يبدأ في طور الطفولة حسدا ، ثم يجتاز طور الشباب يُغضبا ، ثم يكون في كهولته حقيدا .

يُمَدُّ المرء عينه إلى ما حوله ، فإذا هو حاسد . ولا يلبث أن يُسَلِّمَهُ الحسد إلى إغراض من يحسده . وما هي إلا أن يحقد عليه ، فيطوى النفس على إيذاء له ، وإيقاع به .

ذلك العدو المثلث هو حجر الزاوية في مأساة البشرية ، وليس ميّدانه مقصوراً على الفرد وحده ، ولكنه يتعداه إلى الجماعات على اختلافها ، بل إنه يتخطاها إلى الدول على تفاوتها ، وإلى الأجناس على ما بينها من تباين .

ولكى يناهض الإنسان هذا العدو الصميم ، عليه أن يواجهه في معسكره الأول ، أعني : نفس الفرد . فإذا انكشفت عن الفرد عداوته ، لم ينبسط لها ظلٌّ في الجماعات والدول والأجناس .

ولا تحسبن النفس الواحدة من الضالة بحيث يتيسر علاجها على كل طالب ، فإن هذه النفس عالم زاخر يحتاج إلى تنظيم وتدير وسياسة لا تقل عن تنظيم الممالك وتدير الأمم وسياسة الدول .

متى اشتملت نفس بهذه العداوة المثلثة ، عانت حالة من الضعف والمرض . وهذه الحالة لا تصيب النفس بدافع الحرمان وحده . . فكم من نفوس حسدت فأبغضت فحققت لغير مسوغ من حاجة ملجئة ، أو ضرورة داعية !

مَرَّجِع هذه العملة النفسية إلى بِذْرَةِ الْأَنَانِيَّةِ ، تلك التي تجعلُ النفسَ في بُوتَقَةٍ من القَلَقِ والاضْطِرَابِ يَهَيِّجُهَا مَا تَرَاهُ حَوْلَهَا من خيرٍ ينصرف دونها إلى سائر الناس . فهذه النفسُ لَا تَسْكُنُ وَلَا تَقِرُّ إِلَّا إِنْ وَقَفَتْ بِمَرْصَدٍ ، لِتَرْدَّ عَنْ السَّبِيلِ خُطُواتِ السَّاعِينَ إِلَى الغَايَاتِ .

كيف نكافح هذا العدوَّ المثلث ؟

كيف نُهَوِّنُ من بطشه ، إِنْ عَزَّ عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُ ؟
كيف السَّبِيلُ إِلَى أَنْ نُوفِّرَ لِلنَّفْسِ حَظًّا من الصِّحَّةِ والعَافِيَةِ ، فيجتمعَ لها من القُوَّةِ والثِّقَةِ مَا تَعْتَصِمُ بِهِ مِنْ شَرِّ ذَلِكَ المَرَضِ الوَيلِ ؟
لَا جَدْوَى لِمُخْتَلَفِ العِقاوِيرِ والأَدْوَاءِ فِي عِلاجِ أَمْرَاضِ النَفُوسِ ، فَالسَّبِيلُ إِلَى شِفَائِهَا مَرَّهُونٌ بِتَرْوِيضِهَا عَلَى إِثَارِ الخَيْرِ ، وَحُبِّ الغَيْرِ .
لَيْسَ فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَرُوضَ أَنْفُسَنَا عَلَى الخَيْرِ الشَّامِلِ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، فَالنَّفْسُ حَرُورٌ ، وَإِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، وَلَا بَدَّ لَهَا مِنْ مُدَارَجَةٍ وَمَلَانِيَّةٍ ، حَتَّى تَأْتِيَ الجِمَاحَ ، وَتَخْفِضَ الجَنَاحَ .

لِيَأْخُذِ المرءُ نَفْسَهُ بِأَدَى بَدءٍ بِحُبِّ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، وَفِي ذَلِكَ المَيْدَانِ يَتَسَنَّى لَهُ أَنْ يُقْنِعَ النَفْسَ بِالْحَدِّ مِنَ الْأَنَانِيَّةِ ، فَيَهَبَ مِنْ إِشَارِكِهِمْ فِي العِيشِ فَضْلَ سَعِيهِ ، وَمَوْفُورَ إِخْلَاصِهِ . ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَخْطُوَ بِخَيْرِهِ دَرَجَةً أُخْرَى فَيُضَمَّ إِلَى أَهْلِهِ مِنْ يَحْدُثُ مِنْ حَوْلِهِ أَعْوَانًا وَإِخْوَانًا . وَلَنْ يَسْتَعِصَى عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ أَنَانِيَّتِهِ — طَوْعًا — لِمَنْ لَاصِلَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ إِلَّا صِلَةُ الْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانِ !

وبذلك التدرُّجُ فِي تَرْوِيضِ النَفْسِ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْأَثَرَةِ وَالْأَنَانِيَّةِ

تتأصل تلك النزعة الإنسانية من الحب والخير . وفي هذا كسب للبشرية عظيم .

أذكر فيما أذكر قصة فتى فنّان الروح ، كان بالرّيحان ولوعاً ، فأراد أن يستنبت وردة مثالية لا عهد بها لأحد ، فقضى أعواماً يزاوّل تجاربه ليجمع خصائص الورود الزّكية في وردته المنشودة . وكانت تصاحبه فتاة رعناء ، يطوى لها قلبه على حبّ فوّار ، فأغدى عليها عطفه ، واحتمل رعونتها في مصابرة ومطاولة . وأعانته حبه لصاحبه على أن يظلّ ساعياً لخيرها ، لا يبالى أنايته نفسه وحققها عليه . وبينما كان الفتى مسترسلاً في تجارب الورود ، كانت الفتاة تفكّر في حُسن معاملته لها ، وصبره على أذاها ، فأخذت تحاسب نفسها على ما كان منها ، ورجعت تتودّد إلى فتاها في دُمّاة خُلُق ، وإين جانب . ويوماً جلس الفتى مغتماً يتحسّر لإخفاقه في استنبات الوردة المثالية ، فجاءته الفتاة مترفةً به تسأله :
فيم تفكّر ؟

فابتسم لها ابتسامة يأس ، فقالت له وهى تلاطفه :
ألا يكفيك أن أكون وردتك المثالية التى نجحت فى خلقها
خلقاً جديداً ؟ !

فإذا أردنا أن تكون الحياة رَوْحاً ورِيحاًنا ، فلنحرص على أن
نستنبت فى نفوسنا تلك الورود المثالية التى يضوع منها عطر المحبة
والإخاء . . .

دَعُوبَاتُ نَفْسٍ

لم تكد الحربُ العظمى تضعُ أوزارَها منذ ربع قرن ، حتى كان من آثارها أن طَغَتْ على العالمِ مَوَاجَت من التطور في الأوضاع الفكرية والنظم الاجتماعية ، فانتقلت الحضارة الإنسانية من عهدٍ إلى عهدٍ جديد . . . وكذلك الشأن في هذه الحرب الأخيرة ، فإننا نَمَسُحُ من مُعَقِّباتِها أن العالمَ يتهيأُ لوثباتٍ بعيدة المدى ، فيها جُرْأةٌ ورعونةٌ ، تزول بها دنيانا ، وتحلُّ محلَّها دنيا جديدة ، بما يسودُّها من نظم وأوضاع .

ولذلك يحيا الناس اليومَ حياةً تتَّسِمُ بالحيرة ، ويشيع فيها القلق والإضطراب ، ويَغْمُضُ فيها المستقبلُ القريب والبعيد ، وتكتنفها ظلمات من التخوف والتوجُّس والحذر . وإن هذه الحياة القليقة الفوّارة بأنواع المشكلات وضُرُوب العقَد لتدعو الناسَ إلى توقُّع اشتباكٍ وعراكٍ يتزلزل له أركانُ المعمور .

والحقُّ أننا نعيش في عصرٍ تتراكم فيه أثقالُ الهموم ، وتتخايلُ أشباحُ المخاوف من بَغَتَات الأقدار . وليس هذا الترقُّب والرَّهَب مقصوراً على هيئات السياسة ومَجَامع الدول ، وإنما هو وباءٌ تفشَّى ، فلم يدعُ طائفة من الخلق ، ولا فرداً من عامَّة الناس . . .

ومما يزيد الأمر خطراً واستدعاءً للاهتمام أن تلك الحياة القلقة الحثري ، ليست مقصورةً على الرجال دون النساء ، وإنما هي تشمل الجنسين على السواء ، فقد وجدت المرأة الشرقية نفسها في بحر متلاطم متخبط الأمواج ، تبهر عينها الأضواء السواطع ، وتضم أذنها الصيحات المدوية . فهي اليوم تجاه مُعضلات اجتماعية تُصيب الصميم من كيانه حياتها النسوية ، إذ تتنازعها رغبات التحرر المطلق والمساواة التامة بعيش الرجال . وقد كانت في سواف العهود آمنة مطمئنة في خدرها تستمرئ الهدوء والسكينة في دنياها المحدودة بالأستار والأسوار . ولعل المرأة لم تُساو الرجل في شيء قَدَر مساواتها له اليوم في الإضطلاع بنصيبها من القلق والحيرة وتوتر الأعصاب ! .

وإذن فالضرورة تقضي بأن ينظر قادة الفكر وأساءة المجتمع في علاج لتلك الحال يخفف وطء هذه الهموم ، ويسرّي عن القلوب تلك المخاوف ، حتى لا تتبلور فتتقاب عُقداً نفسية خطيرة ؛ تُفضي بالمجتمع الإنسانيّ رجاله ونسائه إلى أوخم العقبي .

ومما هو مسلم به أنه لا شيء كالتنفيس في علاج المشاعر المكبوتة والهموم الراضحة ، فإن المرء إذا حز به أمر لم تكن له من وسيلة طبيعية إلا البكاء والانتحاب ، أو الصراخ والهياج . وما المظاهرات سلمية أو عنيفة إلا نوع من التنفيس لمشاعر الجماهير ، حين يضيق صدرها بما تُحس به من استنكار للظلم ، وثورة على الإضطهاد .

وقد يَهْتَدِي الناسُ إلى أساليبَ من الحركة والضجيج يتلمسون بها
مُتَنَفِّسًا مما يجدونه في صدورهم من حَرَجٍ وضيق . ومما وُفِّقَ إليه الإنسان
من تلك الأساليب ذلك الرقصُ المصريُّ الشائع — أعنى تلك المخاصرة
الشَّائِئِيَّةَ الراقصة — فهي وسيلة اجتماعية قُصِدَ بها إلى التنفيس والتفرُّج
من ضَغَطاتِ المهوم والأحزان .

ولقد تطور هذا الأسلوب طَوْعًا لمقتضيات الزَّمن ، ففي أعقاب
الحرب الماضية ، منذ عَقْدَيْنِ من السنين ، شاع ضرب عنيف من ذلك
الرقص يؤدِّيه الراقصون على الإيقاع الموسيقيِّ الْمُسَمَّى « الجاز » . . .
ونحن وإن كنا لا نَجِدُ فضل الرقص المصريِّ في التنفيس ، نرى
أنه ليس بالملأثم كلَّ الملاءمة لطبيعتنا الشرقية ، لامن وَجْهَةً جَوْنًا الحارَّ
وما له من آثار ، ولامن وَجْهَةً الأخلاق والتقاليد . . .
فَحَقُّ علينا أن نفتشَ عن أسلوبٍ آخرَ أَوْفَقَ وَأَلْيَقَ يبلُغُ
بنا المنشود .

وعندى أن وسائلَ التنفيس لا تُؤْتِي ثمرتها إلا إذا كان أساسُها
إطلاقَ طاقاتٍ من القوة المكبوتة في ألفاف النفس ، فتنبثقُ أصواتًا
واهتزازاتٍ وحركات .

أفنجِدُ وسيلةً مستمدَّةً من عاداتنا ، موافقةً لطبيعتنا ، أَجَلًا وأَكْرَمَ
من « الزار » للمرأة ، « والدَّكْر » للرجل ؟ .

نظرة خاطفة إلى حلقة « الدَّكْر » ومَجْمَع « الزار » تجلوا لنا أن ذلك

« الذِّكْر » ملائم لوقار الرجولة ، وأن هذا « الزار » يَفْسَح للمرأة أفقاً
لعاطفتها ، ومَسْرَحاً لخيالها ، تَمْرَحُ فيه ما وَسِعَهَا المِراح . . .

« الذِّكْر » و « الزار » في حقيقة أمرهما ضربان من الرقص الإيقاعي ،
يندمج الإنسان فيه ، فيتزحزح الغطاء عن العقل الباطن ، وتنطلق
المشاعر المكبوتة من سِجْنِهَا العتي . ولا يلبث القلب أن يصفو رؤيئاً
من شوائبه ، ويتنسم الرُّوحَ والريحان !

الرجل في حلقة « الذِّكْر » يتمايل يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، ويهتز في صعود
وهبوط ، تحدوه موسيقى شَجِيَّة من الناي والمِزمار ، وأنغام من شدو
عذب رفيع يَسْحَرُ السمع ، فإذا الرُّوحُ يَخِفُّ بها الشوق والحنين إلى
آفاق صوفيّة عالية يَشِيْعُ فيها الطهر والنقاء !

والمرأة في مجمع « الزار » وقد أخذتها ضجّات الدفوف وصيحات
الإنشاد ، تكسوها حلل زاهية زاهرة ، وتزينها حُلِيَّ بَرّاقة طريفة —
تراها قد نَسِيَتْ نفسها ، فانطلقت سابحة في أجواء بعيدة من الأخيلة
والتصورات ، يتحرّر بها ما كان مكبوتاً من الرُّغَاب ، وينتعش ما كان
مغلوباً على أمره من النوازع والأهواء !

وأنت لو مضيت تبحّث : أيّ الناس أولى بأن يتفرّجوا ممّا بهم
من الضوائق ، لما رأيت أجدر من رجال السياسة بأن يَغْشَوْا حلقات
« الذِّكْر » : هم يحيون حياة زاخرة بالخصومات والأضغان ، ويتنفسون
في جوٍّ يتطلب الحَيَطةَ والمساورةَ وشتى أساليب الكيد والدهان . وإن

هذا كله لمُنْضٍ بهم إلى كبْتٍ ثَقِيلٍ ، وَحَمْلٍ عَلَى النَفْسِ غَيْرِ قَلِيلٍ . فإذا
فَزَعُوا إلى حَلَقَاتِ « الذِّكْرِ » تَسَنَّى لَهُمْ أَنْ تَذُوبَ بَيْنَ حَنَائِهِمْ رَوَاسِبُ
الْأَحْقَادِ ، وَأَنْ تَعْلَوْ نَفُوسُهُمْ عَنِ الدُّنَايَا وَالصِّغَارِ ، وَأَنْ تَتَطَهَّرَ أَسْنَنُهُمْ
مِنْ أَدْرَانِ الْمَهَاثِرَةِ وَالْمِرَاءِ . فَلَا يَكَادُ يَنْتَهِي بِهِمْ حَفْلُ « الذِّكْرِ » حَتَّى
يُلْفُوا أَيْدِيَهُمْ قَدْ تَقَارَبَتْ بِالمَصَاحِفَةِ الْخَالِصَةِ ، وَأَذْرَعَهُمْ قَدْ انْبَسَطَتْ
لِعِنَاقِ أَخَوِيٍّ مُصَنَّفٍ . . .

لَعَمْرِي إِنْ « حَفْلَةُ ذَاكِرَةٍ » لَهِيَ أَعْمَرُ بِالْخَيْرِ وَأَجْلَبُ لِلُودِ وَأَجْمَعُ
لِلْقُلُوبِ مِنْ عَشَرَاتِ الْمُؤْتِمَرَاتِ ، تَقَامُ عَلَى خُدْعَةٍ وَتَفَاقٍ ، وَتَنْفُضُ عَلَى
صَغِينَةٍ وَدَغَلٍ !

مَا أَكْثَرَ حَفَلَاتِ الشَّامِ وَمَجَامِعِ الشَّرَابِ « كَوَكْتِيلِ بَارْتَنِي » فِي
عَصْرِنَا الرَّاهِنِ ، تَتَحَلَّقُ فِيهَا أَخْلَاطٌ مِنْ طَوَائِفِ الْمُجْتَمَعِ الْمُخْتَارَةِ ، وَتَتَرَاءَى
فِيهَا الْوُجُوهُ عَلَيْهَا مَسْحَةُ الْبَشْرِ وَصِبْغَةُ الْإِنْسَانِ . فَإِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَسْتَبْرُونَ
الْأَغْوَارَ ، وَيَسْتَشْفُونَ مَا وَرَاءَ الْأَسْتَارِ ، تَبَيَّنْتَ أَنَّ الْجَامِعَةَ الَّتِي تَوَلَّفَ
بَيْنَ أَشْخَاصِهِمْ ، وَتَصِلُ بَيْنَ أَحَادِيثِهِمْ ، إِنَّمَا هِيَ جَامِعَةُ الرِّيَاءِ الْإِجْتِمَاعِيَّ
الْجَلِيلِ ! . . .

أَفَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الْمُجْتَمَعِ الظَّامِيِّ إِلَى مَحَبَّةٍ وَسَلَامٍ ، أَنْ يُطَالَبَ بِالْإِغَاءِ
هَذِهِ الْحَفَلَاتِ الزَّائِفَةِ ، وَالْمَجَامِعِ الْكَاذِبَةِ ، وَأَنْ يُحِلَّ مَحَلَّهَا حَلَقَاتِ
« الذِّكْرِ » الصَّافِيَةِ الْوَادِعَةِ ، تُدَارُ فِيهَا عَلَى الذَّاكِرِينَ أَكْوَابُ الْقِرْفَةِ
وَالزَّنْجَبِيلِ ، فَيَشْرَبُونَهَا عَلَى الْأَلْحَانِ الْعِذَابِ مِنْ طَبِلٍ وَمِزْمَارٍ ؟ . . .
وَيَارُبَّ مَعْضِلَةٍ دَهِيَاءٍ فِي مَوْقِفٍ دَوْلِيٍّ أُعْيِتْ كِبَرَاءُ السَّاسَةِ ،

فلم يجدوا لعقدتها من حلّ . ولوا أطلقوا لأنفسهم أعنتها في حفل « الذّكر »
لا تفتح لهم الرأى ، وبرقت لهم بوارق التوفيق من أيسر سبيل . فقد
هدت أبحاث علم النفس الحديث إلى أن العقل الواعى قد يكلّ ويعيا
بالأمر ، فإذا أسلم المشكلة إلى العقل الباطن ، تجلّى له وجه التدبير ، فيما
يشبه غفوات الأحلام !

أما الأوانس والسيدات من الطبقات العليا والوسطى ، فما أحوجن
إلى التخفيف من تلك المراقص والمساهر التى يسودها التكلف والتظاهر ،
ويتفشى فيها التفاخر بأناقة مصنوعة مزوّرة . وما أحوجن إلى أن يصنّ
زهرة شبابهن التى تذويها السهرات الموصولة بين رقص وشراب .
لقد آن لهن أن يعدن إلى مجامع « الزار » ينفضن فيها هموم البيت
وأثقال الحياة ومخاوف المستقبل . وإن المرأة فى هذه المجامع المقصورة
على بنات جنسها ، لتجد الفرصة سانحة على أنعام الدفوف لتطلق
سجيتها ، وتبسط دخيلتها ، لا يعوق حريتها عائق ، ولا يصرفها عن
البوح بمكنونها شيء . . .

ويلوح لى أن مجامع « الذّكر » ومحافل « الزار » لا تكاد تفشو
بيننا ، وتتوطد تقاليدھا الجديدة ، على أنماط موائمة لحياتنا الحاضرة ،
حتى نراها قد تخطت الشُّحوم ، وسرت عدواها إلى أمم الغرب ، التماساً
لما فيها من بركة ونفع ، فيعالجون بها ما يعانون من قضايا دوائية ومشكلات

قومية وأمراض اجتماعية أَعْضَلَتْ واستعصتْ على العلاج ، وعَزَّتْ منها
الشفاء . . .

لَتَسْمَعَنَّ الْمَجَبَّ الْعَاجِبَ مِنْ أَنْبَاءِ « الذِّكْرِ » وَ « الزَّارِ »
الشرقيَّين ، حين يُعَسِّيَانِ أَمْرِيكَيَّينِ ، تتَفَنَّنِ في تجديدِهما العبقرية الأمريكية
المُؤَلِّمة بالتجديد والإطراف ! .

ولسوف يَرْوُقُكُ وَيَطْرُبُكَ حَقًّا أَنْ تَطَالَعَكَ الصَّحُفُ بَنِيًا مِنْ
« لِيك سَكْسِس » يذيعُ لَكَ أَنَّ اكْفَهْرَارَ المَوْقِفِ الْعَالَمِيِّ ، وشيوعَ الْقَلَقِ
على مصير السلام ، قد حفز « الرئيس » على أَنْ يقيمَ في « مجلس الأَمْنِ »
حفلةَ « ذِكْرٍ » دولية خطيرة ، فيتنافس سفراء الدول وعُمَدَاءُ الأُمَمِ في
تأدية هذا « الذِّكْرِ » بين الإنشاد والتَّطَوُّش . . . فما ينتهي الحَفْلُ ،
حتى يُرَوِّا مستبشرين مُفْتَرَّةً ثغورهم عن بَسْمَةِ الرضا والإِطمئنان ، فإذا هم
قد تَلَاقَوْا على هَوًى واحد ، وإذا هم قد تَلَاقَوْا بذلك ما كان مُوشِكًا أَنْ
يَنْشَبَ مِنْ عَوَاصِفِ الشُّرُورِ ! . . .

فلنسارعْ إلى تجربة « وَصْفَةِ » الذِّكْرِ وَالزَّارِ .
ولنُعِدِّ لهما العُدَّةَ مِنْ أَنْوَاعِ البُخُورِ الزَّكِيِّ .
ولنُجَنِّدْ كِبَارَ المَغْنِينِ والمَغْنِيَّاتِ يُنْشِدُونَ فِي هَذِهِ المَحَافِلِ الجَدِيدَةِ .
ولنتهيًّا لِاقْتِحَامِ المَيْدَانِ عَلَى دَقِّ الطُّبُولِ !

العالم بين شقي رخي

العالم على وجه عام ، يتنازعهُ اليومَ عنصران أصيلان ...

الأول : العنصر « السِّلَافِي » .

والآخر : العنصر « الأنجلوسكسوني » .

ولسنا في مقام التكهّن بما يكون من تغلب أحدِ العنصرين على الآخر ، ولكننا نُلقي نظرةً على العنصر « الأنجلوسكسوني » الذي ترَبُّطنا به وشائجُ وثيقة ، والذي هو أقربُ إلى أفهامنا منألا .

هذا العنصر — فيما يبدو — جبهة واحدة ، ترسّم خططا للنظام الاجتماعي العالمي ... ولكن لا يُعوّزنا أن نتبين ضروبا من الخلاف وانقسام الرأي ، تجعل ذلك العنصر في حقيقة الأمر شطرين اثنين :

أحدهما : إنجليزى . والآخر : أمريكى

فما مرجع هذا الخلاف ؟ وما علة ذلك الانقسام ؟

لو سألت إنجليزيا : من هو الأمريكى ؟

لرأيتَه يرأو إليك بعينيه الزرقاوين ، وملامحه الصُّلْبَة ، وهو جالسٌ جلسته الجافية ، وفي فمه « غليونُه » الخالد ، وكأنه يفكر في مشكلة مستعصية ، ثم إذا هو بعدَ لأي يقول في لهجة إهمال وزرارية :

ليس الأمريكيّ — في حقيقة أمره — إلا إنجليزياً هجيناً ، عبثت
به يدُ الاختلاط ...

ولو ألقيتَ على الأمريكيّ سؤالاً : من هو الإنجليزى ؟
لأجابك خفيف النبرة ، مُشرق الطلعة ، قائلاً :
ليس الإنجليزى إلا أمريكياً من العصر الحَجَرى !
ثم يُتبعُ قوله بقهقهة كأنها وَصلةٌ موسيقية تتبَعُ صوتَ الغناء !
كلاهما لا يخالو قوله من صدق ...

فالأمرىكىّ — فيما يرى الإنجليزىّ — ما هو إلا إنجليزىّ في نسبه
ومَحْتَدِه ، ولكنه فقدَ على الزمان دَمَ النَّسَب ، وروحَ العنصر ، بما تَفَشَّى
فيه من مَزْج واختلاط . فهو اليومَ أشدُّ ما يكون حاجةً إلى وصاية
إنجليزية ترعاه وتحاول انتخاله وتصفيته ، وتنفُتُ فيه مقوّمات العنصر
« الأنجلوسكسونى » ، حتى يستقيمَ عوده ، ويستردَّ ما فقدَ من خلوص
جوهره ..

والإنجليزىّ — فيما يراه الأمريكىّ — ما هو إلا أخ له وصنو ، بيدُ
أنه أمريكىّ عتيق ، أكل عليه الدهر وشرب ، وأضرَّ به البقاء في موطنه ،
فلم يتجدّد بالرحلة والانتقال ، ولم يكنسبُ من حيوية التجارب دماً فتياً
يبعثُ فيه الحميّة والنشاط ... وهو اليومَ أشدُّ ما يكون حاجةً إلى
وصاية أمريكية تجدد شبابَه ، وتنفُتُ فيه النضارة والفتوة ، وتخرج به
من غياهبِ التقاليد والجمود ... حتى يستطيعَ أن يُسَيرَ ركبَ الزمن
في شقِّ الآفاق !

الأمريكية طابعها الفورية والانطلاق والإقحام ، لا عائق من سدّ أو قيد . . . وسرُّ هذا الطابع أن الأمة الأمريكية تلتقي فيها أخلاط من الأمم ، وأشتات من العناصر ، انتزعت من منابتها ، وألقي بها في ذلك الميدان الجديد ، فانقطعت صلتها بالأصول ، وأصبحت حرة طليقة لا يعتاق خطاها رعاية لماض ، أو تأثر بقديم ، أو احتفاظ بموروث . . . ومن ثمَّ تروّعك في الحياة الأمريكية ألوان من المتناقضات . فمن طهرية متزمتة ، إلى إباحية جارفة . ومن اشتراكية متطرّفة ، إلى رأسمالية عارمة . ومن مثاليات رفيعة ، إلى سخافات يشيع فيها الابتذال . ولهذه المتناقضات جميعا مُتنفّس في ذلك البلد الرّحّب الحرّ ، تنافس وتتغالب ، وتحاول أن تثبت أحقيّتها وكفايتها في الوجود !

أما الإنجليزية في جزيرتها التليدة ، فليست إلا قالباً مَكِيناً قد عمِلَ الزمن عمله في تماسكه وتجمعه ، حتى أصبح متميزاً بعقلية راتبة ثابتة متجانسة .

الأمريكي مغامر ، حياته تجارب متواصلة ، ليست على غرار سابق . وهو يقوم بها مدفوعاً بفطرته وبداهته على أيّ نحو تكون ، لا يفكر في العقبى كيف تجيء . ومن ثمَّ كان بلدُ الأمريكي مَعْمَلَ الاختراع ، ومعرّض الطرائف ، في كل مرْفِقٍ من مرافق العيش . . . وإن كان كذلك بلد العثرات المختلفة في التجارب والمحاولات . وتلك سُنّة الكون ، وطبيعة الخلق والإنشاء .

ولكن الإنجليزية في جزيرته إذا خطا فَنَكر طويلاً كيف يضع

قدمه ، وإذا سارت تَهَلَّ واتَّاد ، لَمْ تُعْوزْهُ القدوة ، ولم يَعِزَّ عليه الاحتذاء ، ولم يَجِدْ من نفسه حافزاً إلى قفز ومواثبة . وهو دائماً يتلفتُ حواليه يتبينُ سوافَ التجارب ، وعواقب الأحداث ، خَشْيَةَ التعثر والإزلاق لا يتوخى خُطَّةً ولا يسلك طريقاً إلا إن تَمَلَّكَ ناصية الأمان !

وربما كان أوضح ميدانٍ لذلك التخالف في الطابع بين الإنجليز والأمريكيين ، هو ميدانُ السياسة .

فالأمريكي في هذا الميدان ذو وجه جديد ، فليس له تقليد يرتبط به ، وليست له سابقة يبحث عنها لينتهج مِثَالَهَا . وإنما يعالج ما يطرأ من شئون السياسة بوحى الساعة ، وعَفْوِ الفكر . ولذلك تعددت في خُططه وقراراته زَلَّاتُ الإسترسال ، ومزالقُ الارتجال !

فأما الإنجليزى فإنه سياسى تليد ، لسياسته أعراقٌ تنفذُ في غواير الأحقاب . وهو فيما يعرض له من المشكلات والأزمات يستهدى ماضياً عميقَ الجذور ، ويتَّسَّمُ مبادئ موروثة لا يَبْغِي عنها حِوَلًا . ولذلك تَتَّسِمُ السياسةُ الإنجليزية في كثير من مواقفها بالاستمداد من المنابع القديمة ، بيد أنه استمداد مَرِنٌ يتشكّل وفقاً للطوارئ والأحداث !

وفي طبيعة ما يتباين فيه الأخوان : الأمريكى والإنجليزى ، أن الأول — طوعاً لفتوته وتنوع منابته — نزاعٌ إلى الخيال ، وهذا ما يدفعُ به إلى المغامرة والتهور في كثير من الأحيان .

على حين أن الآخر — طَوْعاً لأصاليته وحُكْمَتِهِ — أميلُ إلى الحقائق العملية .

فالإنجليزى يعيش بعقلية التاجر الدرب ، وسياسته فى كل عهد
أمبراطوريته تسير على هدى من هذه العقلية وحدها ، عقلية التاجر ،
تلك التى تتعاقب عليها حظوظ الكسب والخسار ، والفوز والإخفاق .
ومعلوم أن نواة الثورة الأمريكية على الإستعمار الإنجليزى كانت
ضريبة الشاى التى فرضاها التاجر — أعنى : السياسى — الإنجليزى على
أهل البلاد ، فثاروا به ، وألقوا ببضاعته فى مضطخب الموج ، وما لبثوا
أن أجلوه جلاء إلى غير رجعة !

ويحدثنا التاريخ بعيدة وقريبة أن الإنجليزى استعمار « الهند » أول
ما استعمارها تاجراً يبتغى الربح ، ثم تبعه الجندى الإنجليزى يوطد
فى ربوع « الهند » قدم التجارة . وهاهو ذا وقد أتم مهمته ، يخلو عن تلك
البلاد ، تاركاً التاجر الإنجليزى الأصيل يواصل عمله فى طمأنينة وسلام !
وإنا لنرى اليوم هذا التاجر ، وقد أثقلته محولته ، وبهظته تبعاته ،
وهو فى ملتطم العباب ، يعالج أن يبلغ الشاطئ ، ناجياً بنفسه من غرق
وشيك ، فلا يجد من وسيلة وحيلة إلا أن يتخفف مما به ، وأن يُسقى
ما يحمله ، فإذا هو يلقى عن كواهله ما يعوق حركته فى صراع
الأمواج ، حتى يستأنف عهداً جديداً من حياته التجارية ، خالصاً من
أوقار الماضى وأثقاله . . .

ولو أردت تمثيل الأمريكى والإنجليزى لكان أقرب شبه إلى
الأمريكى ، هو الفتى الحديث العهد بإرث عريض ، الفتى الطروب
المزاح يزهو بمال وصحة وشباب . وليكن أقرب شبه إلى الإنجليزى

هو ذلك « الجنتلمان » الهرم ، يريد أن يستبقى ما يسعُه استبقاؤه من فضالة ثروته ، وأنقَاضِ صحته ، وذمَاءِ حياته . فهو بمظهره المتحفِّظ المتزمت يغالبُ الأقدارَ وتغالبُه .

وعلى الرغم مما ترى من خلاف بين الإنجليزى والأمريكى ما يزالان يسيران جنباً إلى جنب في ركب الحضارة . . . فقد استيقن كلاهما أنه متم لصاحبه ، وأن اعتزاله يعرِّضه للخطر .

والأمتان الإنجليزية والأمريكية كأنهما « برلمان سكسونى » ، يقتعدُ الأمريكى مجلسَ نوابه ، ويقتعدُ الإنجليزى مجلسَ شيوخه . وفى هذا البرلمان تشكِّل السياسة السكسونية التى هى مزاج طريف بين ما الأمريكى من طفرة وتزق ، وما للإنجليزى من محافظة وتوقُّر . . .

وهذا العنصر السكسونى بشطريه يحاول أن يضع العالم بين شِقِّ رَحاه . . .

فإذا يكون نصيبُ العالم من هذه المحاولة ؟
هل يكون نِتاجُ هذه الرِّحى جمجمةً جوفاء تصدعُ الرءوس ،
أو طيحناً يُسبِغُ الخيرَ والبركات ؟ !

الدنيا هي

بيننا وبين سنة ألفين خمسون من الأعوام ، ولا مِرْيَةَ أن هذه
الحِقْبَةَ تَطْوِي بين جوانحها عجائب من المخترعات في مرافق الحياة ،
وسيكون من أثرها أن يُلْحَق التغييرُ أساليب العيش في المأكل والملبس
والسكنى . وكذلك لا بد أن تتقدم وسائل الانتقال ، حتى لقد تجاوزَ
لمنح الخيال !

معجزات فائقة ننظرها ونستشف أطرافها في أفق المستقبل القريب
ولسوف تجعل العالم يحيا في دنيا جديدة تتجلى فيها عبقرية المدنية
والتحضر . . .

وليسكون للإنسان في صميم كيانه نصيبٌ موفور من ذلك كله ،
نصيب يحفظ له صحته ، ويمدُّ في عمره . ويواتيه بمختلف أسباب الوقاية
ووسائل العلاج .

ولكن هذا الرُّقَى المرتقب في شتى مرافق المجتمع البشري . هل
يتعدى في حقيقة أمره الجانبَ الشكليَّ الظاهر من حياة الإنسان ؟
هذه المخترعات ، وإن بلغت شأوها الأقصى ، هل تغفلُ إلى جوهر
النفس الإنسانية وخصائصها الثوابت ؟

أ كافيّة مئآت من السنين ، بلّه خمسين ، في تطوير الجنس البشريّ
وتقلّله من حالٍ إلى حال ؟ .

إن وراء البشرية رُكاماً من القرون يَقبِلُ الغلوّ في الزيادة أكثر مما
يقبل التحديد والتّخصيص . . . ولقد أُرست هذه القرون قواعد من الغرائز
والمنازع في قرّارات النفوس ، فهي تأتي أن تليّن لمؤثّرات مُحدّثة تعدّ
أعمارها بمئات السنين

مثل الإنسان فيما يتقلّب فيه من مختلف الحضارات ، كمثله فيما
يستبدل من الثياب . . . فهو ينشئ الحضارة الجديدة ، كما يتخذ الملبس
القشيب ، فيبد أنه هو هو على اختلاف عهوده في التعرّض ، كما أنه هو
هو على اختلاف ما يُلبس من أزياء ! .

تقول الحكمة البالغة :

التاريخ يعيد نفسه .

وليس للتاريخ موضوع إلا ذلك الإنسان ، فهو الذي يُعيد نفسه
مرة بعد مرة ، وهو الذي يكرر شخصيته الواحدة في حيواته المتعاقبة ،
وإن تباينت فيه الصور والألوان .

إننا لنسأل :

هل تخرج هذه الكائنات البشرية يوماً عن طبيعتها ، فتتبدّل
خلقاً آخر ؟ .

هل ينتظر هذا الكوكب الأرضي ، في يوم قريب أو بعيد ، أن يدبّ
على أديمه إنسان جديد ، خالص مما ترسّب فينا من غرائز وتزعّات ؟ .

أكبر الظن أن أعظم المخترعات شأنًا ، لن يكون إلا وقودًا لضمير المرء
به غرائزنا الأصائل ، وتقوى به نزعاتنا الثوابت . فالحق أننا بهذه
المخترعات على اختلاف غاياتها ، نرضى في أنفسنا أمهات الغرائز من الغلبة
والسيطرة وتنازع البقاء .

ما أبطأ الغريزة في التطور ، وما أعصاها على التحول !
إنها وليدة البيئة ، فلا بد أن تعمل البيئة على تغييرها حتى
تنقاد وتستلين .

ولست أعني بالبيئة تلك الظواهر المصنوعة ، والقشور الزائفة ،
وإنما عنيت بها البيئة الطبيعية التليدة التي تزداد تأثلاً وتأصلاً على
مرّ الأحقاب .

والإنسان في حياته الحضرية ، قسمة بين عقله وغريزته ، وهما
مختلفان في مدى استعدادهما لقبول التطور . . .

العقل نزاع إلى التجدد ، ولوع بالاستحداث ، مجتهد في التغيير
والغريزة صلبة جامدة ، حريصة على ترأثها العتيق ، تحتفظ به ، ولا تنزل
عن شيء منه

إذا نشط العقل مخترع ، فواتاه التوفيق ، ودانت له معجزات
ترقى به في سلم الحضارة ، ألفيناً الغريزة تعمد إلى مجهود العقل ، فتطوعه
لخدمة أغراضها ، وتحقيق غاياتها ، لا يعتاقها في سبيل ذلك شيء .

لا يخذعك ما ترى من بريق المديات ، وما يتشدد به الإنسان
من رقي الإنسان .

وراء ذلك الستار من الطلاء ، يكمنُ الآدميُّ الأصيل ، يتسم
ابتسامة الشُّخْر والاستهزاء بتلك الأوهام والأخاديع !
الإنسانُ هو الإنسان . . .

تساقى به العقلُ من أعماق الكهوف إلى أطباق القصور ، ولكن
الغريزة أبقتَه محكومَ النفس على اختلافِ حالاتِه بشريعة الغاب !
ما زالت : « الحرب » في عصر العبقرية العلمية والسمو الحضريّ ،
هي الفيصل الأخير فيما ينشِب بيننا نحن الآدميين من خاصمة ونزاع ،
فهى : إلى يومنا هذا — أوضح مظهرٍ لتنازع البقاء بين الشعوب .
ظلت « الحرب » في ركاب الإنسان تسيره . . .

فالمعارك العالمية التي شهدنا مَعَمَّانها ، هى فى حقيقةها وجوهرها
تلك التى كانت تدور بين الإنسان والإنسان فى عصور ما قبل التاريخ .
ولا فرق فى الحقيقة والجوهر بينها وبين المعارك التى تقوم بين الحيوان
والحيوان فى سبيل حفظ الأنواع .

الحربُ أداة طيخن وغريلة ، تعملُ طوعاً لغريزة السيطرة ، ووفقاً
لحقيقة « بقاء الأصالح » . . . وعند رتى وحده علمُ هذا « الأصالح » :
أى شىء هو ؟ وما عناصر « صلاحيته » على الوجه الصحيح ؟ .

لعمرك إن النفس ما برحت هى النفس ، خالدة النزعات والشهوات .
هذه شهوة التشفى والانتقام ، شهوة التشكيل بالمغلوب على أمره ،
لقد تجلّت فى الحرب الأخيرة أبشع ما تتجلى ، فإذا هى تزداد قساوة
وضراوة عما كانت عليه فى العهود التى نلقبها عهود الوحشية والظلام ! .

هذه نزعَةُ المفارقة والمخاطرة ، تلك النزعَةُ التي تدَّسم بالجرأة
والتهور ، مستمِدةً وقودَها من غريزة الهيمنة والتأمر ، لقد تبدَّتْ صوراً
وألواناً في المجتمع الإنساني ، ولكنها لبثتْ خالدةً لا تنالُ منها رفاهيةُ
المدنية ، ولا تُحمِدُها رخاوةُ الأمن والطمأنينة ، فاتخذتْ لها على تماقِبِ
المهود صوراً جديدةً ، وألواناً آخر . . .

وفي الحقِّ ليس إنسانُ اليوم أضعفَ جسارَةً وتعريضاً للمخاطر من
إنسانِ الأمس ، وليس أهونَ منه إنكاراً للنفس وسماحةً بالفداء واحتمالاً
للمسكاره والصَّعاب . فإن أعمالَ البطولة في ركوبِ البحار كَشَفًا عن
المجهول ، وفي اعتلاء الطائرات ذهاباً إلى الأقصى ، وفي حملِ المهلكاتِ
توصُّلاً إلى الأهداف ، لا تنزلُ درجةً عن أعمالِ البطولة التي سجلها التاريخُ
للإنسان القديم ، توطيداً لسلطانه ، في مؤْتَنَفِ زمانه !

لقد تغلغلت الغرائزُ والنوازع ، حتى أصبحتْ جزءاً في بذرة الحياة
لا ينفصلُ ، فلكي نطمَحَ إلى إنسانٍ جديدٍ بمنجاةٍ من هذه الغرائزِ
والنوازع ، يجب أن نُغيِّرَ تلكَ البذرة .

فهل هناك اختراعٌ يبسِّرُ لنا أن نستبدلَ بغرائزنا العادية غرائزَ
مستحدثات ؟

هل في مستطاعنا أن نتحكَّم في النفس البشرية ، فنخضع نزعاتها
على وَضْعٍ خاص ؟

أقادرون نحن يوماً على تشذيبٍ وتهذيبٍ لتلك الغرائزِ العَصِيَّةِ والنوازعِ
المتمرِّدة ، حتى يتسنى لفلاسفة المثل العليا أن يظفروا بالإنسان الكامل ؟

لو أن لنا طاقة بهذا كله ، لَتَمَّتْ المعجزة ، ولأدرك الإنسانية
انقلاباً لا عهد لها بمثله في عُمر التاريخ .

في مقدورنا أن نتمثل حدوث تلك المعجزة الكبرى . . .
فليت شعري . أ يكون ذلك لخير البشرية أم لشرها ؟ لازدهارها
أم لإضمحلالها ؟ لبقائها أم لفنائها ؟

لعلَّ أصدق الجواب ما جادت به منذ أربعة عشر قرناً فِطْرَةُ بدوية ،
هي فِطْرَةُ الشاعر العربي « زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَأْمَى » إذ يقول :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ

وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي !

ذَلِكَ الطِّفْلِ الْفَتَانِ

احتدم النقاشُ في شأنِ الصَّحْفِيِّ الناجحِ ، في هذا العصر :
كيف يكون ؟

وأىُّ المؤهلاتِ أدعى إلى نجاحه وتبريزه وذُيوع اسمه ؟
ولم تلتقِ الأفكارُ في هذا الصَّدَدِ على رأى واحد ، أو تُجمَع على
نتيجة حاسمة .

فكتبتُ إلى صديقِ « عزُّوز » ، وهو الذى أفرعُ إلى رأيه كلما
أعضلتُ مشكلاً ، وحزبَ أمر . . . فكان عند ظنِّي به ، وما أسرع أن
وردنى كتابه يُفتِنِي في شأنِ الصَّحْفِيِّ العصريِّ الموفقِ
قال — نفعنى الله بعمله ، وأخلانى من تبعه فتواه — :

« إليك أيها السائلُ الكريمُ جوابُ ما سألتني فيه
وأُسَلِّفُ إليك الشكرَ على أن اخترتني لهذه المهمةِ وحسنًا فعلتَ ،
فمن غيرى خير بهذه الشؤون ، وأنا ربيبُ الصَّحَافَةِ ، غَدَّتني لبانها ،
وعرَّكتني رَحَّاهَا ، فذُقْتُ من عُصارتها الحلو والمرَّ ؟
وقبل أن أمضيَ في إجابتك عن سؤالك ، أسترعى نظرك إلى أن

حديثي سيكون خاصاً بالصَّحَفِ الذي تتطلبه مُقتَضِيَّاتُ حياتنا الراهنة ،
وملابساتنا الحاضرة .

وأما الصَّحَفِ المثاليُّ أو النموذجيُّ الذي تتمثله الأذهان المتحفظة ،
ويصوره منطق العقل الجامد . فذلك مالا يَرُقُّ إلى حديثي إليك . إذ أن
هذه الشخصية لا تُصِيبُ في مُحِيطِنا القائم أيّ نجاح .

نظرةٌ إلى بيئتنا ومجتمعنا اليوم تُرينا أن الأوضاعَ العامَّةَ والأنظمةَ
المقررةَ في مختلفِ المناحي قد انقلبتْ رأساً على عَقِبٍ . . . ومن الحماسة
الحَكْمُ الآنَ على هذا الإِثْقَابِ : أَعْلَى هُدًى هو أم في ضلال ؟

وليست الصَّحَافَةُ إِبْلَاقِيَّةَ البَيِّنَةِ ، وصورةَ العصر ، ومِرآةَ تنعكس
على صفحتها بَدَوَاتُ هذا المجتمع الجديد ونزواته .

ومعلوم أن العمود الفقري للصَّحَافَةِ الحديثة ، هو «الإِسْتِطْلَاعُ» ...
فلا بدَّ أن تزخر الصحيفة بالإِسْتِطْلَاعَاتِ الطريفة البراقة ، وما تشتمل
عليه من تعليقات خاطفة على الحوادث الجارية ، وسَبَقُ في تقديم أحدث
الأنباء والشئون ، على أن يكون ذلك في إخراج شائق جذاب . . . وتلك
هي أبلغُ العوامل أثراً في تحبيب الصَّحِيفَةِ إلى القارئ ، وفي إغرائه بما
تَرْفُقه إليه من زاد .

وإذن فقدرة الصَّحَفِ الحديث هي براعته في التقاط هذه
«الإِسْتِطْلَاعَاتِ» ، والتفنن فيها ، واستجلاء دقائقها المحببة التي تثير
الانتباه ، وترَوِي ظمأ الفُضُول . . .

إذا قلت : صحفٌ حديث ، ابنُ يومه ، وكفءُ عصره ، فقل :

طَفِيلِيَّ فَنَان ، يُرْضَى بِمَا يَقدِّمُ لَنَا مِنْ اسْتَطْلَاعِهِ نَزْعَةَ التَّطْفُلِ الْكَامِنَةِ
فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ !

وَلَا يَتَسَنَّى لِطَفِيلِيٍّ أَنْ يُظْهِرَ عِبْقَرِيَّتَهُ ، وَيُؤَدِّيَ مِهْمَتَهُ ، إِلَّا إِنْ أُوتِيَ
شَهِيَّةَ سَمَحَةٍ ، وَمَعِدَّةَ هَضُومٍ . فَهُوَ يَقْبَلُ عَلَى مُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ ، وَأَشْتَاتِ
الطَّعُومِ ، لَا تَأْتِي نَفْسُهُ مِنْهَا أَى لَوْنٍ ، وَلَا تَضِيقُ بِأَى طَعْمٍ .

فَكَذَلِكَ الصَّحْفَى الَّذِي هُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى لِلطَّفِيلِيَّةِ الْفَنَانَةِ ، لَا بَدَّ أَنْ
يَكُونَ وَاسِعَ الصَّدْرِ ، رَحِيبَ الْأَفْقِ ، حَاضِرَ الْحِيلَةِ ، خَفِيفَ الْحَرَكَةِ ،
رَكَينَ الْأَعْصَابِ ، يَرْتَادُ مُجَامِعَ النَّاسِ ، وَأُنْدِيَةَ الطَّبَقَاتِ ، لَا تَكْبُرُ
نَفْسُهُ عَنْ أَدْنَى مُسْتَوَاهَا ، وَلَا تَصْغُرُ عَنْ أَعْلَى ذِرْوَتِهَا .

فَهُوَ فِي بَوَاكِرِ النَّهَارِ تَلْمَحُهُ مُنْدَسًا بَيْنَ ثَلَاثَةِ مِنْ رِجَالِ الشَّرْطَةِ ،
يَحَاوِلُ أَنْ يَتَشَمَّمَ أَنْبَاءَ فَاجِعَةٍ تَمَخَّضَ عَنْهَا اللَّيْلُ . . .

وَلَا يَكَادُ ذَلِكَ الطَّفِيلِيَّ الْبَارِعَ يُشْبِعُ نَهْمَهُ ، حَتَّى تَرَاهُ قَدْ احْتَوَاهُ
سِرَادِقُ نَحْمٍ ، فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ ، لِلِإِحْتِفَالِ بِوَضْعِ حَجَرِ الْأَسَاسِ فِي مُنْشَأَةٍ
جَدِيدَةٍ ، حَيْثُ يَتَوَافَدُ الْكُبَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ . فَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ
يَتَرَصَّدُ لِلصَّيْدِ . . . وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ يُنْشِبَ مُخَالَبَةً فِي الْفَرَائِصِ ذَاتِ الْيَمِينِ
وَذَاتِ الشِّمَالِ ، يَقْتَطِعُ مَا وَسَعَهُ أَنْ يَقْتَطِعَ ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَزْدَرِدَ غَنَائِمَهُ
عَلَى عَجَلٍ !

وَسَرَّعَانَ مَا يَتْرُكُ الْحِفْلَ إِلَى أَقْرَبِ « تَلْفِيُون » فَيَصْبُهُ سَوْطَ عَذَابٍ
عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْأَمْنِيِّينَ ، يَضْمَنُ لِنَفْسِهِ مَوَائِدَ جَدِيدَةً تَحْفِلُ بِالْأَلْوَانِ شَهِيَّةٍ
مِنْ طَرَائِفِ الْأَخْبَارِ وَالْمَوْضُوعَاتِ .

وَيَظَلُّ صَدِيقُنَا الطِّفْلِيَّ جَائِعًا عَلَى « التَّلِفُونَ » حَتَّى يُفْقِدَهُ الْأَنْفَاسَ .
فَيَتَنَحَّى عَنْهُ مَتَمَنِّيًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ تُسَعِّفَهُ الْأَقْدَارُ فِي سَاعَةِ الْأَصِيلِ بِجَنَازَةٍ
حَارَّةٍ يَسْتَكْمِلُ فِيهَا شَهْوَاتِهِ إِلَى اصْطِيَادِ الْغَنَائِمِ مِنْ أَفْوَاهِ الْعِلْيَةِ وَالسَّرَّاءِ
بَيْنَ الْمُشَيِّعِينَ !

وَمَا إِنْ يَنْقُضُ عَنْ كَتْفِيهِ غُبَارُ التَّشْيِيعِ حَتَّى يَمْجَلْ إِلَى ارْتِدَاءِ حُلَّتِهِ
السُّودَاءِ الْفَاخِرَةِ ، مَتَأَنِّقًا مَتَظَرِّفًا ، لِيَسْتَقْبَلَ الْوَارِدَ فِي حَفْلَةٍ سَاهِرَةٍ مِنْ
حَفَلَاتِ الْمَجْتَمَعِ الرَّفِيعِ وَلَا يَفْتَأُ يَجُولُ وَيَصُولُ ، حَتَّى يُجْهَزَ عَلَى الصَّفْوَةِ
مِمَّنْ أَلْقَى بِهِمُ الْقَدَرُ فِي شَبَابِكِهِ ، فَيَغَادِرَ الْحَفْلَ يَتَمَطَّطُ فِي الطَّرِيقِ !
وَبَعْدَ سَاعَةٍ أَوْ نَحْوِ سَاعَةٍ تَشْهَدُهُ أَخَا سَفَرٍ ، يَحْمِلُ فِي عُِمَّاهُ حَقِيبَتَهُ ،
وَيَتَّخِذُ طَرِيقَهُ إِلَى الْقَطَارِ ، لِيَسَامَهُ فِي مَطْلَعِ الْفَجْرِ عِنْدَ قَرْيَةٍ جَدَّةٍ مِنْ
أَمْرِهَا طَارِيٌّ عَجِيبٌ ، لِيَتَبَلَّغَ فِيهَا بِمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ .

الطِّفْلِيَّةُ الْفَنَّانَةُ لَا غَيْرُهَا ، هِيَ حَجَرُ الزَّاوِيَةِ فِي مَوْهَبَةِ الصَّحْفِيِّ الْجَدِيدِ !
وَلِهَذِهِ الطِّفْلِيَّةُ الْكَرِيمَةُ عُنَاصِرٌ لَا بَدَّ أَنْ تَتَوَافَرَ ، لِكَيْ تَنْمُوَ نَمُوهاً ،
وَتُؤَوِّتِي ثَمَارَهَا طَيِّبَاتٍ . . .

وَلَسْتُ أَغْلُو إِذَا قُلْتُ : إِنْ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ الْمَنْشُودَةِ عُنْصُرُ
الْإِجَابَةِ السَّائِغَةِ . . .

فَالصَّحْفِيُّ الْمَوْهُوبُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْيِلَ هَذِهِ الصِّفَةَ الْبَغِيضَةَ عُنْصَرًا
لَطِيفًا عَظِيمَ الْأَثَرِ فِي إِبْلَاغِهِ مَآرِبَهُ ، دُونَ تَنْفِيرٍ وَلَا اسْتِكْرَاهٍ .

وَعَلَى قَدْرِ اسْتِخْدَامِ الصَّحْفِيِّ لِهَذَا الدَّوَاءِ النَّاجِعِ ، يَتَوَقَّفُ نَجَاحُهُ
فِي الْحَصُولِ عَلَى مَا يَرِيدُ ، وَقَتْمَا يَرِيدُ

وفي مقدمة العناصر اللازمة عنصرُ التلوُّن اللائق السكِّين ، يتخذ الصحفيُّ من ضروبه وأفانينه ما يوائم كلَّ موقف ، ويلائم كلَّ مقام فهو في طريقه إلى شيخ الدين رجل متزمت متحفّظ ، يُنقل بين أصابعه حَبَّاتِ سُبْحَتِهِ في تمتمة وترتيل .

وما يزال مُتَنَمِّسًا متشعلًا حتى يظفر من شيخ الدين بكلمة عابرة في مَقْرَضِ مجاملة ، فيَصْهَرُهَا الصحفيُّ في بُوقَتِهِ ، ويخرجها تصريحًا خطيرا في موضوع دقيق شائك قد يتحفّظ من مثله الغالون في الحُرِّيَّةِ والإِنطلاق !

وتراه في مجلس زعيم الحزب نصيراً له ، يتلهَّب حماسة لمبادئه ، وَغَيْرَةً على سُمْعَتِهِ ، وذوداً عن مواقفه . وما هي إلا أن يستلَّ من فم ذلك الزعيم نِشَاراً من أحاديث ، فلا يلبث أن يصطنع منها مادة قنبلة يلقِيها في الميدان السياسي ، تَنْشِبُ بها حَرْبٌ عَوَان !

وربما تَلَطَّفَ ذلك الطفيليِّ الفنان لَوْلَاةِ الأمور ، حتى يأذُنُوا له في زيارة مؤسسة عامرة ، وهو يُظهِرُ الإِشَادَةَ بفضليها والتمجيد لغاياتها ، ولا يكادُ يجوسُ خلال المؤسسة ، نافذاً بأنظاره خَلْفَ أَسْتَارِهَا ، حتى يُوحِيَ إليه شيطانُه موضوعاً تَبَيَّنَ به هذه المؤسسةُ بمن فيها فريسةً لَأَنْيَابِ الْقِيَلِ وَالْقَالِ

وَأَنْتَ فَرَبْما شَهِدْتَ حريقاً مشبوباً في ميادين الحياة العامة من سياسية واجتماعية وما إليها ، وسمعت في أجيج النار أصوات الساسة والزعماء والقادة يتهاثرون ويتصايحون . . . ولو وقفت تدقُّ النظرَ

حول هذا الحريق ، لتصيّد بصرُك حَتْمًا صَحْفِيًّا لَبَقًا ، وفي يده الذُّبَالَةُ التي
أَوْقَدَ بها النُّارَ ، وهو يتسلَّلُ تسلُّلَ الفأر ، يلتمسُ السَّبِيلَ إلى
جُحْرِهِ الْأَمِينِ !

ومن لوازم صديقنا الصحفيِّ المصريِّ ، أعنى ذلك الفنانِ الطفيليِّ ،
لكي تفتَحَ له الأبواب ، وتهشَّ له الوجوه ، أن يكون فَاخِرَ البِزَّةِ ،
وجيَّةَ الطَّلَمَةِ ، عليه طُلَاوَةُ الْأَنَاقَةِ ، وسمات الرُّفْعَةِ . وأن يكون خبيراً
بمختلفِ الأجواء ، وعلاقاتِ الأُتَرِ بعضها ببعض ، وما بين الناس من
عوامل الشقاق أو أواصر الوفاق . حتى يستطيع أن يُدير الحديث على
بصيرة وهُدًى ، ويتعلّق الآذان بما تهوَّى . فيكتسب الرضا العامَّ ،
ويأنس إليه الجُلَّاس ، فيبوحوا له بمكنون الأسرار والأخبار . . .
فلا يترك مجلساً إلا وقد خَرَجَ منه بما لذ وطاب ، من العَجَبِ العُجَابِ !
ويا صديقي السائل :

لا يذهبنَّ بك الوهم ، إلى أن هذه الصفات من الهنات الهيئات ،
ولا يدفعنَّ بك الغرور إلى أن تحكم عليها حكم الأخلاقيين الجامدين الذين
يفكرون ويتفلسفون في معزِلٍ عن واقع العيش وحقائق الحياة . .
ليست هذه الطفيليةُ الفنّانةُ إلا موهبة عزيزة المنال ، يختصُّ بها
أفذاذ . إذ لا بدَّ لتوافرها من أن يكون صاحبها وافي الحظِّ من الأُمعِيَّةِ
والفطنة ، ومن الإلمام بشتّى مناحي النشاط الثقافي والفكريِّ والحيويِّ
في المجتمع المصريِّ .

فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ صَحْفِيًّا نَاجِحًا ، فَلْيَخْتَبِرْ فِي نَفْسِهِ مَا أُوتِيَ مِنْ
مَوْهَبَةِ الطَّفِيلِيَّةِ الْفَنَانَةِ

فَإِذَا قَصَّرَ بِهِ الْإِخْتِبَارُ ، فَلْيَتَّخِذْ لَهُ مَجَالًا غَيْرَ الصَّحَافَةِ ، يُوَافِقُ مَزَايَاهُ .
وَأَمَّا إِنْ آتَى فِي نَفْسِهِ هَذِهِ الْمَوْهَبَةَ الْغَالِيَةَ الْكَرِيمَةَ ، تَزْدَهَرُ
بِئْوَهَاتِهَا الطَّرِيفَةِ ، فَلْيَضْرِبْ فِي الْمِيدَانِ ، تَحْدُوهُ الثِّقَّةُ وَالْإِطْمِئْنَانُ . . .

« عُرُوز »

ذَلِكَ كِتَابُ صَدِيقِي الَّذِي اسْتَفْتَيْتُهُ ، فَأُفْتَانِي بِهِذَا الْجَوَابِ ، وَمَقَامُهُ
عِنْدِي يُضَرِّفُنِي عَنْ مَنَاقِشَتِهِ الْحَسَابِ !

جُنُودٌ فَجْهُوْلُونَ

في السوق السوداء !

نحن نعيش في عصرٍ انتقال ، نحاول فيه أن نتخلص من ماضٍ له
أثقاله ومساوئه ، لنحيّا حياةً جديدةً نساير فيها ركب الحضارة ، وتكامل
في الفرد منا شخصية الإنسان المتمدّن . . .

فهذا العصر الذي نعيش فيه ، هو عصرٌ اضطراب وتقلقل بطبيعة
الحال ومن عاش في عصرٍ كهذا لا يسأل :
ما هي الأوضاع التي يجب أن تزول ؟
لأن أكثر الأوضاع تحقيق بالزوال .

ولعل السؤال الصحيح يجب أن يكون على هذا النحو :
ما هي الأوضاع التي يحسُن أن نستبقها ، فلا نعمل فيها معوّل
الهدم والإنتقاض ؟

على أنه ليس من العسير أن نتصوّر هذه الأوضاع التي يجب أن
ندعو إلى إزالتها ، فهي كالشوامخ لا تخفى على الناظر .

ولكنني أؤثر أن أتجنب تلك المسائل الكبرى ، وأن أتسلّل إلى
الزوايا أُنْبِشُ بعض ما فيها مما يبدو للعين صغيراً لا خطرَ له ، وإن كان له

في الحقيقة كبير الخطر . فما أشبهه بالشوس يَدِبُّ في خُفْيَةٍ وعلى مهل ،
 فيقوِّضُ - من حيث لا تنتبه - أركان البنيان .
 وربما كان أظهر ما في الزوايا ذلك الشوس الذي نُسِّمُهُ « التَّسْوُل »
 أو الإستجداء

ولا يُسرِعَنَّ إلى وهم القارئ أني أعني أولئك السائلين من الفقراء
 والمحايج الذين يطلبون الصَّدَقَات ، ممن تزخر بهم أعطاف الطريق . . .
 فالخطبُ و هؤلاء على لجاجتهم وإلحاحهم يسير . وإنك لمستطيع
 أن تختار بين اثنتين :

فإما قضيت مآربهم بفُلُول النقود ، ومنشور الدراهم .
 وإما ردَّدتهم عنك بالكلمة الخالدة : « على الله ! » . . . والله
 واسعُ العطاء !

ومهما يكن من أمر هؤلاء ، فإن فيهم فضيلةٌ تُكسِبُهُم شيئاً من
 الإحترام ، وهي فضيلة الصراحة فإنهم يواجهونك بالسؤال ، مُسْفِرِينَ
 لك عن غرضهم في غير خديعة أو تحييل أو التواء .

وهم - لانكشاف أمرهم - لا يَصْغُبُ علاجهم على أحد وفي
 مقدور الحكومة إذا ضاقت بهم أن تتخذ في شأنهم تدبيراً حاسماً يخفف
 من وطأتهم ، أو يستأصل شأقتهم من الطرقات والسُّبُل ، بأن تريد
 القادرين منهم على العمل ، وتُوَوِّى العاجزين في ملاجئ تكفيهم
 مِثْوَنَةُ السُّؤَال

وإن مثل هؤلاء المُسْتَجِدِّين جَهْرَةٌ وعلانية ، كمثل الأسعار الظاهرة

للسَّامِعِ فِي السُّوقِ الْبَيْضَاءِ ، بِيَدِ وُلاَةِ الْأَمْرِ أَنْ يَرُدُّوا غَلَاءَهَا وَيَكْفُوا
 غُلُوءَهَا بِالتَّسْعِيرِ الْجَبْرِىِّ ، يَفْرِضُونَهُ بِسُطُورَةِ الْقَانُونِ .
 فَأَنَا لَا أَغْنِي إِذَنْ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ السَّائِلِينَ ، وَإِنَّمَا أَغْنِي صِنْفًا آخَرَ ،
 مِثْلَهُ فِي الْإِسْتِجْدَاءِ كَمِثْلِ السُّوقِ السُّودَاءِ فِي عُرُوضِ التَّجَارَةِ !
 فَذَلِكَ هُوَ الصَّنْفُ الْخَطِرُ الَّذِي يَنْفُتُ سُمُومَهُ فِي خُفْيَةٍ وَتَسْتَرٍ ،
 لَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الرِّقَبَاءِ ، وَلَا تَنَالُهُ سُلْطَةُ الْحُكَّامِ .
 وَالْمُسْتِجِدُّونَ الَّذِينَ أَخْصَصْتُهُم بِالذِّكْرِ ، يُمْكِنُ أَنْ يَنْقَسِمُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ :

الأولى : فِرَقَةُ « التَّلْفُونَاتِ » .

فَقَدْ تَكُونُ فِي بَيْتِكَ مَطْمَئِنًّا ، قَدْ أَخْلَدْتَ إِلَى السَّكِينَةِ ، وَأَنْسَيْتَ
 إِلَى قَدَحِ الْقَهْوَةِ تَرْتَشِفُهُ ، وَإِلَى اللَّفَافَةِ تَسْتَمِرُّ أَنْفَاسَهَا . فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ
 يَصِلَ جَرَسُ « التَّلْفُونِ » ، وَيَسْتَبِينَ لَكَ أَنَّكَ مَطْلُوبٌ لِلتَّكَلُّمِ مَعَ رَجُلٍ
 مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ ، لَهُ خَطَرُهُ ، فَتَنْفِزُكَ مَتَسَائِلًا :

مَاذَا جَرَى ؟ وَأَيُّ شَأْنٍ يَكُونُ ؟

وَتَنْقُضُ عَنْ نَفْسِكَ مُتَعَمِّدَةً الْجُلُوسَةَ الَّتِي رَكَنْتَ إِلَيْهَا ، وَتَهَيِّئُ نَفْسَكَ
 لِلنَّبَأِ الْجَلِيلِ ، وَلَا تَكَادُ تَتَحَدَّثُ بِضَمِّ كَلِمَاتٍ حَتَّى يَتَوَضَّحَ لَكَ أَنَّ الْمُسْتَكَلِمَ
 نَكِيرَةٌ لَا يُبَالَى أَنْ يُقْجِمَ اسْمَ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ فِي شَأْنِهِ ، لِيُحْكِمَ رَفَى
 الشِّبَاكِ ، وَنَضَبَ الْحَبَائِلِ . . .

وَإِنَّهُ لَيُصِرُّ عَلَى تَوْثِيقِ الصَّلَةِ بَيْنَ مَوْضُوعِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ الرَّجُلِ
 الْعَظِيمِ ، إِيغَالًا فِي التَّحْيِيلِ ، وَتَمَكِينًا لِلْغَرَضِ .

وبعد مقدمات قد تبدأ بعهد « آدم » ، ينتهي الأمر إلى إخبارك بأن رسولا سوف يقدّم عليك ليقدّم لك سندا بتسلم مبالغ من المال ، مدّعيًا أنه سينفق تشجيعا لمشروع إنساني رفيع ، أو تأييدا لقضية قومية عزيزة ، أو تكريما لشخصية لها في النفوس مقام . . . !

الثانية : فرقة الأبواب .

وهي جماعة من الناس يحاصرون أبواب الدور ، ويختارون لذلك أوقاتا لا مفر لأصحاب هذه الدور من أن يلقوهم فيها مرّاحا أو مغدّى .

وجنود هذه الفرقة ينقضّون على فرائسهم انقضاض الباشق على غنيمته ، باسطين أيديهم بمختلف الصكوك عليها الأختام الملونة ، والإمضاءات المطلّسة ، يتقاضون بها أجورا لحفلات تقام في رؤوس مدبريها ، وقيم اشتراكات في صحف لن تُشر إلا يوم النشور . إلى غير ذلك من أفانين تنهافت حولها أطماع الكسالى ، فيتخذونها شركا لا يترّاز المال !

الثالثة : فرقة الطرق والمسالك .

وهذه الفرقة مدربة على أحدث الأساليب . فهي متفقة فيما بين أعضائها على توزيع الطرق ، لكل فرد منها منطقة نفوذ ، هو فيها الحاكم المتسلط ، والسيف المصنّت على رقاب السالكين من عباد الله !

تَلْمَحُهُ من بعيد ، فتراه يخطو خُطَى الشرطى المَهيب ، متخذاً شارة
الإمارة والاعتزاز .

وَيُقْبِلُ عليك ليطلبك ، كأنه رقيبُ الحدود ، أو حارس التُّخُوم ،
يتقاضاك المَكُوسَ وضرائب المرور !

فهو يتحدث إليك حديثَ رجلٍ يؤدى واجباً رسمياً يستند فيه إلى
قانون ودستور .

وجنود تلك الفرقة يتخذون عُنُصُرَ المفاجآت العجيبة ، والكوارث
النادرة ، فيجعلون أنفسهم من صَرَعاها ، فى التَّوَّ والساعة .

ولهم فى هذا الباب أقاصيصٌ ، وروايات مُحْكَمَةُ النَّسْجِ ، بليغةُ
الحِوَارِ ، قوية الخيال ، أعترف لها بالفَوْقَ والامتياز . . .

وإنى لأَتَمَنَّى أن تَسْتَغِلَّ هذه الفرقُ الثلاثُ نشاطها ومواهبها
فى مضمار غير هذه المضامير ، سعيًا إلى مُجْدِ العمل ، وشرفِ الكسب ،
وكرامةِ الإنسان !

قَصْرُ الْأَحْلَامِ

المَعْرِضُ الزَّرَاعِيُّ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي رَأَيْتُهُ هَذَا الْعَامَ ، هُوَ فِي حَقِيقَةِ
أَمْرِهِ مَعْرِضُ « الْحَالِ » ، أَوْ مَعْرِضُ « الْحَاضِرِ » . . .
لَقَدْ حَقَلَ بِزُبْدَةٍ مَا بَلَغَتْهُ حَضَارَتُنَا الصَّنَاعِيَّةُ وَالزَّرَاعِيَّةُ وَالِاِقْتِصَادِيَّةُ ،
مُصَوَّرًا فِي تِلْكَ الْقُصُورِ الْمُشِيدَةِ الَّتِي اِحْتَوَتْ نَمَازِجَ هَذِهِ الْحَضَارَةِ عَلَى
نَحْوِ أَنْيَقِ .

فَذَلِكَ الْمَعْرِضُ يُعَدُّ بِحَقِّ صِرَآةٍ مُجَلَّوَّةٍ لِيَوْمِنَا الرَّاهِنِ ، وَحَيَاتِنَا الْمَائِلَةِ .
وَلَسْنَا نَجِدُ قَدَرَ الْجُهُودِ الَّتِي بُذِلَتْ فِيهِ ، وَلَا نُنْكِرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ
مِنْ سَلَامَةِ ذَوْقِ ، وَاسْتِقَامَةِ تَفَكُّيرِ .

وَلَكِنْ اعْتَرَفْنَا بِهَذَا الْفَضْلِ لَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَنْ نَسْأَلَ :
أَلَيْسَ « الْحَاضِرُ » قَرِيبَ الْمَنَالِ مِنَّا ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَعَرَّفَ بِهِ ، بَعْضُهُ
أَوْ كُلُّهُ ، فِيمَا حَوْلَنَا ، وَقَتًا نَزِيدُ ؟

وَهَلِ « الْحَاضِرُ » هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي تُصَبُّو النُّفُوسُ إِلَى تَعَرُّفِهِ وَتَصَفُّحِهِ ؟
ثُمَّ جَانِبٌ خَطِيرٌ مِنْ جَوَانِبِ حَيَاتِنَا الْفِكْرِيَّةِ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ
مِنْ عَنَایَةِ الْمَعْرِضِ الْعَتِيدِ .

ثُمَّ جَانِبٌ رَفِيعٌ تَكْمُنُ فِيهِ الْأُمَانِيُّ وَالْأَحْلَامُ ، وَتُحَوِّمُ فِيهِ

أسرابُ الأخيلة والأفكار ، كان من أكبر أمانينا أن نرى له في رحاب
المعرض أكرم مقام .

ذلك هو جانب « المستقبل » ، أو « الغد » . . .

كيف غرَبَ عن بال القائمين على المعرض أن يفسحوا مجالا لقصر
عظيم ، يطلقون عليه : « قصر الأحلام » ؟

في هذا القصر يتجلى ما يجيش في السرائر والأذهان من رغائب
ومطالب ، هي وليدة التصورات والأمانى . . .

في هذا القصر تبرز معروضات نموذجية لما تهفو إليه القرائح
والعقريات ، فيما يكون عاينه مستقبل « مصر » القريب أو البعيد . . .

أين نموذج الحياة الريفية كما يتمثلها المصلح الإجتماعي الذي يدعو
إلى تجديد الريف ، وينشد للفلاح رُقياً ونهضة ؟

أين نموذج الحياة التعليمية على النمط الذي يلوح في مخيلة المربي
المثالي ، حين يتفنى بما يجب أن يتحلى به الطالب ، حتى يكون منه
المواطن الصالح ؟

أين نموذج الاستغلال الاقتصادي لكنوز « مصر » المجهولة ،
وثرواتها الضائعة ، فنرى بقعة من الصحراء قد استحالت — بمشروع
عملي طريف — قطعة من أرض خصيبة تُنبِت أطيب الثمرات ؟

أين نموذج التفطن إلى الانتفاع بخصائص المواطن المصرية التي
تجعل هذا البلد محجاً للسياح ، مثل جبال « سيناء » التي يُمكن أن تكون
مشاتي تبُلغ الأوج في طيب الهواء ؟

أين؟ وأين؟ ثم أين؟...

ما أجدَر أن يكون « قصر الأحلام » ألمع جوهرة في تاج المعرض ،
تتضوأ منه أشعة النفسية المصرية في تطلُّعها إلى التحضر ، وتوثُّبها للعلاء !
لم يكن يُعوِّزُ القَوَّامينَ على المعرض ، لتحقيق تلك الفكرة ، إلا أن
يُجرِّدُوا حملةً من أصدقائنا الأعزَّاء ، أعنى الصحفيين الذين يتولَّون
الاستطلاعات ، فإنهم أقدرُ على محاصرة ذوى القرائح النيرة من النابغين
في الطبِّ والهندسة والزراعة والاقتصاد . . . وإنهم ليعرفون كيف
يُحفِّزون هؤلاء جميعاً على البوَّح بمكنون عبقرياتهم في التخيل والتعنى ...
وإذن يكون من الميسور على الفنانين أن يُمثِّلوا هذه الأمانى في نماذج
مصوِّرة ، وأمثلة مجسَّدة ، يتألف منها في صدرِ المعرض : « قصر الأحلام » !

أَتَهْمُ الْأَدَبَاءَ

الأمةُ إلى الأمام تسير .
فِيئَاتُهَا تَعْمَلُ ، وَلَا تَقْتَأُ تَعْمَلُ .
وهي ذى الأسس ترُسُخُ ، والدعائم تُقام .
هي نهضة تنتظم جوانب المجتمع ، ومختلف مرافقه .
وليس الجانب الثقافي بأهون الجوانب حظاً من النهوض .
إنه يؤسّس ويبنى في ضروب الثقافة نجني من المطبعة ثمارا
في الترجمة أو التأليف ، تشهد بنضج القرائح ، وبراعة الأقلام .
مِصْدَاقُ ذَلِكَ أَنَّ نِتَاجَنَا الثقافي في عشر السنوات الأخيرة وَحْدَهَا ،
رَبَّمَا يَعْدِلُ نظيره في أعوام خمسين تقضت قبل هذه السنين العشر .
وما كان لتلك النهضة الثقافية أن تقوم دَوَائِمُهَا والبلد رهْنُ بإرادة
الأجنبي المسيطر . فكما استرجعنا من حريتنا السياسية شيئاً ، ترَاحَبَ
أمامنا أفقُ العمل ، وتوافرت لنا أسبابه .
حقاً أناحت لنا الحرية السياسية فرصة السعي المُثْمِر في الميدان الثقافي .
ولكن !

لكل نهضة من مختلف نهضاتنا الاجتماعية قيّد يتمثل في كلمة «لكن»

ولكن يبدو أن الحرية السياسية التي استكملناها في الميدان الثقافي ،
تلك الحرية التي أذابت في بُوتَقَتِها كثيراً من السلاسل والأغلال ،
لم تكن هي الحرية في أتمِّ معانيها .

هناك حرية أخرى ظلت بعيدة المنال منا ، حريتنا في دخائل
نفوسنا التي لا يَشْرِكُنَا في مِلْكِهَا أحد ، تلك هي حرية العقل والوجدان .
فهل وُفِّقَ الأديبُ إلى أن يحطِّمَ الأغلال التي تقيّد نفسه ،
وتحكّم مشاعره ؟

أمامك عدوٌّ شاخص ، في مُسْكَنَتِكَ أن تُناجزه وأن تغالبه ، لأنه
يتراءى لك واضح المعالم ، ويكشفك جَهْرَةً بالعداء . فإذا شئت أن
تَطْعُمَهُ تسنى لك أن تُسَدِّدَ الطعن . . . فهذا أيسرُ أعدائك حرباً ،
وأهونهم شأنًا !

أما ذلك العدو الخفي السارب في حنايا نفسك ، الساري في أوصالك
مَسْرَى الدَّمِ في العروق ، حتى لكانه بَضْعَةٌ منك ، شائعةٌ فيك ، فذلك
هو العدو العتيُّ الذي يتطلب قتاله منك جهادَ الأبطال !

إنك قد تُحِسُّهُ في نفسك ، وقد تتبين مكانه منك ، ولكنك حين
تَبْغِي استئصاله تتخاذل وتَهِنُ قُوراك ، إذ تشعُرُ بأنك تنتزعُ جزءاً من
كِيَانِكَ الخيِّ . . .

ربما كنت مؤمناً بأنه عدوٌّ لك جدير أن تُناوِثَه ، حتى تخلصَ
من أذاهُ ، فلا يقف في طريقك حَجَرٌ عَثْرَةٌ ، ولا يحول بينك وبين
المُضَى إلى الأمام . . .

يَيْدَ أَنْكَ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَجْبُنَ عَنْ مَصَاوِلَتِهِ ، لِمَا تُحِسُّهُ لَهُ مِنْ وَشَائِحِ
قَرَابَةٍ ، وَأَعْرَاقِ أُلْفَةٍ . . . وَإِذَا أَنْتَ مُنْتَحِلٌ كَوَازِبَ الْمَعَاذِيرِ ، فَتَوَهِّمُ
نَفْسَكَ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى تَلَا فِي أَذَاهُ ، وَتَطْوِيعِ قِيَادِهِ ، وَتَظَلُّ تَحَاوِلُ وَتَحَاوِلُ ،
إِلَّا أَنَّكَ تَبْؤُءُ مِنْ مَحَاوِلَاتِكَ بِالْإِخْفَاقِ بَعْدَ الْإِخْفَاقِ !

هَذَا الْعَدُوُّ الْحَيِيبُ ، هَذَا الدَّاءُ الدَّفِينُ ، هُوَ ذَلِكَ الثَّرَاثُ الثَقِيلُ مِنْ
قَوَاعِدَ وَأَصُولَ ، وَمِنْ قَوَانِينَ وَأَحْكَامَ ، وَمِنْ عَادَاتٍ وَتَقَالِيدَ . . .
كَانَ هَذَا الثَّرَاثُ أَزَاهِيرَ نَضَرَتْ فِي عَهْدٍ غَوَابِرَ ، فَتَحَدَّرَتْ إِلَيْنَا
مِنْ مُخْتَلَفِ عَصُورِهَا وَأَحْقَابِهَا ، حَتَّى وَشَجَّتْ فِي قَرَارَاتِ نَفُوسِنَا جُذُورًا
يَابِسَةً لَا رَوْثَ لَهَا وَلَا عَطَرَ .

مَا أَشْبَهَ نَفُوسِنَا بِتَرَبَةِ طَيِّبَةٍ فِي جَوْهَرِهَا ، لَا تُعَوِّزُهَا عُنَاصِرُ الْخَضْبِ
وَالْإِزْدَهَارِ . إِلَّا أَنَّهَا أَصْبَحَتْ عَلَى تَعَاقُبِ الْأَزْمَنَةِ صُلْبَةً مُسْتَمْسِكَةً
بِجُذُورِهَا الْمُتَحَجِّرَةِ ، لَا يَزُكُو فِيهَا نَبَاتٌ جَدِيدٌ .

فَنَحْنُ أَحْوَجُ مَا نَكُونُ إِلَى مُحْرَّاتٍ ضَخْمٍ ، حَدِيدِ الْمَخَالِبِ ،
نَحْرُمُ بِهِ تِلْكَ التُّرْبَةَ ، فَيَقْضِي مَضَاجِعَ تِلْكَ الْجُذُورِ . . .
نَحْنُ أَحْوَجُ مَا نَكُونُ إِلَى أَنْ نُضْرَبَ بِذَلِكَ الْمِحْرَاثِ ، حَتَّى يَبْلُغَ
الْأَغْوَارَ ، حَامِلًا إِلَيْهَا نَفْحَاتٍ مِنَ الْهَوَاءِ ، وَفُيُوضًا مِنَ الْمَاءِ !
وَهَلِ الْمِحْرَاثُ إِلَّا عَزِيمَةٌ وَجُرْأَةٌ ؟

فَهَلِ تَوَافَرَ لِلْأُدْبَاءِ أَنْ يَكُونُوا عَزَّامِينَ جُرَّاءِ ؟
نَحْنُ الْأُدْبَاءُ نَمُضِي فِي مِيدَانِنَا الثَّقَافِيِّ بَحْرِيَّةً مَنْقُوصَةً تَمْنَعُنَا أَنْ نَقْفَرَ
طَلْقَاءَ حَيْثُ نَشَاءُ . . .

ثَمَّةَ أَصْفَادٍ تُثْقِلُ أَقْدَامَنَا ، وَتَعْمُوقُ خُطَاَنَا . . . فَإِذَا مَا عَنَّا لِأَحَدِنَا
أَنْ يَثْبُتَ وَثْبَةً جَرِيئَةً ، عَضَّتْهُ الْأَصْفَادُ ، فَوَقَفَتْ بِهِ حَيْثُ كَانَ .

نَحْنُ الْأَدْبَاءُ نَسِيرُ ، وَنَتَابِعُ الْمَسِيرَ .

وَلَكِنَّا نَسِيرُ صَفًّا كَأَنَّا سُجَنَاءُ مُتَعاقِبُونَ ، مَوْصُولَةٌ أَقْدَامُهُمْ
بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ .

كُلُّنَا مِنَّا يَسِيرُ . . . أَمَامَهُ رَفِيقٌ وَخَلْفَهُ رَفِيقٌ ، فَهُوَ يَخْشَاهُمَا ،
وَهُمَا يَخْشِيَانِهِ .

كُلُّنَا مِنَّا يَنْقُلُ خَطَاةَ ، وَهُوَ يَفْرِضُ رِقَابَتَهُ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُ وَمَنْ
تَأَخَّرَهُ ، وَيَحْسُبُ حَسَابًا لِرِقَابَتِهِمَا عَلَيْهِ .

فَنَحْنُ جَمِيعًا سَجَانُونَ مَسْجُونُونَ !

سَنَظَالٍ فِي هَذَا الصَّفِّ الْمَوْصُولِ أَرْقَاءَ ، حَتَّى يَنْجُمَ بَيْنَنَا عِبْقَرِيٌّ
فَذَّ ، يَبْطِشُ بِطَشْتِهِ بِقَدَمِهِ الْجَبَّارَةِ ، فَيَحْطِمُ تِلْكَ السَّلَاسِلَ الْغِلَاطَ ،
وَيَثْبُتُ مِنَ الصَّفِّ لِيَضْرِبَ فِي الْمِيدَانِ ، فَلَا يَلْبِثُ الْجَمْعُ أَنْ يَسْتَشْعِرُوا
رُوحَ الطَّلَاقَةِ وَالْحُرِّيَةِ تَشْقُّ بِهِمْ جَدِيدًا مِنَ الْآفَاقِ !

الأدب الرفيع

هل تسيء إليه الإذاعة و « السينما » ؟

منذ انبسطت تلك الستارة البيضاء تعرض الصور المتحركة التي نسميها « السينما » ، ومنذ تجاوزت الأرجاء بالأضواء ، منطلقة من تلك الأداة التي تسمى « الراديو » ، جعل المفكرون وذوو الرأي يضربون جباههم بأيديهم ، وهم يتساءلون :

هل تسيء الإذاعة و « السينما » إلى الأدب الرفيع ؟

لقد طالما جرت في هذا الشأن أحاديث المجالس ، ومناقشات الأندية . وانفردت ببحثه مقالات في الصحف والمجلات . بل لقد عقد له بعض المؤلفين فصولاً في كتبهم التي تتناول بالدرس قضايا الفكر والأدب . وكان طبيعياً أن يكون مثار هذه المسألة في الشرق ، متأخراً كل التأخر عن ظهورها في الغرب ، فإن الغرب هو السباق إلى استخدام المخترعات الحديثة ، ومظاهر الحضارة الجديدة .. يُصيب خيرها ويكابد شرّها على السواء !

على أن هذه المسألة نفسها جانب من مسألة شاملة ، هي الإشفاق على الفنون كلها من عصر الآلة على وجه عام . فإن المفكرين وقفوا

ينظرون إلى الفنون نظرة خَشْيَة وتحسّر ، منذ ابتدأت المخترعات الآليّة تستبدّ وتعتزّ ويقوم لها سلطان .

ألم يكن الآلات المصوِّرة أثر في الرسم بالمرقَم ، ضَجَّ منه فنانوه ؟
ألم يكن للحاكي أثر في الغناء والمغنيين ؟

حقًّا كان لهذه المصانع التي تخرج الآلات قوالب متكررة ، أعمقُ الأثر في الأعمال التي يقوم بها الصانع الفنّان ، ويسكِّب نفسه في كل وَحْدَةٍ من وَحَدَاتِ عمله الفنيّ .

ولكن ماذا كنّا نبغى ؟

أكنّا نَتَمَنَّى أن تتعطَّل الآلة ، ويَبْطُلَ نفهها المجتمع البشريّ ؟
كلا ، ما كان ذلك ليدورَ في خلد أحد . فإن هذا المجتمع في عصره الراهن مَدِين لتلك الآلة بما سَمَّا إليه من تحضُّر ، وما توافر له من رَفَاهِيَّة .
وما دامت الآلة ليس منها بُدّ ، فلنا أن نسأل :

هل يَفْقِدُ المجتمع في عصره الآليّ فَنِيَّتَهُ ؟

هل يُحْرَمُ عنصر الفنِّ الرفيع ؟

المنطق الحقّ يدعونا إلى القول بأنه لا فِقْدان ولا حِرمان ، ولكن فكرة ذلك الفن الرفيع يدركها من التطوُّر ما أدرك المجتمع الحديث ، فيكون لها طَوْعًا لمقتضيات الآلة لون جديد ، وتستقرّ على وَضْع غير ما تُعَوِّف من أوضاع .

فإن كان الأمر كذلك ، فأى أثر تُلَحِّقُه الإذاعة و«السينما» بأدبنا

الرفيع ؟

إلى أى مدى تتغير أطوراه ، وتنقلب أوضاعه ؟
هل تقضى الإذاعة و «السينما» على ذلك البناء الشامخ الذى تعاونت
على دعمه القرون والأحقاب . . . أعني به : « الكتاب » ؟
كان « الكتاب » وليد البيئة التى لا بست عصره ، وكان طابعا
للعهد الذى أنجبته . بل قل إنه كان ضرورة من ضرورات الطور الذى
عاش فيه المجتمع وما زال يعيش .

أليست خصائص « الكتاب » هى اتخاذ الوصف والشرح
والتحليل وسيلة إلى نقل الأفكار ، والترجمة عما يتخالب النفوس من
عواطف ونزعات ؟

أو ليست هذه الخصائص تمثل حاجة المجتمع البشرى إلى ذلك
المنحى من التعبير ؟

« الكتاب » إذن أداة عصره فى التواصل الاجتماعى ، وأسلوب
زمنه فى التعبير الفكرى .

فهل يطوى المستقبل جنبه على نية الاستبدال بتلك الأداة ،
والتغيير لذلك الأسلوب ؟

أفى مستطاع الإذاعة و «السينما» أن تطوى صفحة « الكتاب »
فى يوم قريب أو بعيد ؟

مهما يكن من أمر ، فلا حق لنا فى خشية ولا إشفاق ، ولا عذر
لنا فى الوقوف أمام « الكتاب » نندب مصيره المخوف !

حسبنا أن نقف من الإذاعة و «السينما» موقف السائل :

هل يحفظُ لنا ذلك النحوُ الجديدُ من التعبيرِ نشاطنا الذهنيَّ ؟ وهل يحلُّ محلَّ « الكتاب » في مواصلة التفكير البشريِّ ؟

إذا نجحت الإذاعة و« السينما » في أن تكونَ أداةً أمانةً صادقةً لبسطِ الخواطرِ ، وعَرْضِ الأفكارِ ، فلا ضَيْرَ على فنيَّةِ الأدبِ مما يكونُ ، فإن « الكتابَ » حينَ يزولُ على هذا النحوِ أو يضمحلُّ ، فإنما يلحقُه ذلك بوصفه ثوباً من الأثواب ، وصورةً من الصور ، وزياً من الأزياء . وهل « الكتابُ » إلا ثوب أو صورة أو زي ؟

من التَّغَالَى في التقدير أن تُنْزَلَ « الكتاب » تلك المنزلة من التقديس ، فنقولُ بأنه عماد التفكير والتثقيف والتفنن ، إن انتقص قدره ، أو انتسخ ظله ، فلا فن ولا ثقافة ولا فكر .

إذا اتخذ التفكير البشريُّ ترجيحاً له ، يطابقُ الجديدَ من عصره ، فقد جرى على نهج طبيعيٍّ لا يرتقي إليه نزاع . فما كانت الأدوات والوسائط يوماً خالدة على الزمان ، وما ينبغي لأداة واحدة أن تبقى على ترادفِ العصور ملازمةً للإنسان !

المُعَوَّلُ كله على الجوهرِ وحده ، والجوهر في الأدب الرفيع هو الفكر والعاطفة . فأما أداة التعبير فهي مظهر من المظاهر ، وعَرْضٌ من الأعراض ، لا يَأْسَى على تبديله من سَلِمَ له الجوهر ، وخَلَصَ له اللُّبَابُ . لا ريبَ في أن كلاً من الإذاعة و« السينما » سوف تطبع الأداء الفكريَّ بطابع يلائم مقتضياتها ، وسيَجْرى هذا الطابع على سُنَّةِ التطور ، حتى ينتهي إلى أصول مقررّة ، هي زُبْدَةُ التجارب ، وخلاصةُ المزاوَلات .

لا مبالغة في القول بأن الإذاعة سيكون لها في توجيه الأدب نحو
جديد ، بل سيكون لها مثل هذا التوجيه في مختلف الفنون ، وسيكون
هذا التوجيه وفقاً لطبيعة الإذاعة في مخاطبة الأصوات للأسماع .
وكذلك الأمر في « السينما »

ليكون لها هي الأخرى منحي يختص بها في التعبير الأدبي
والفني ، وليكون هذا المنحي وفقاً لطبيعة « السينما » في مخاطبة المشاهد
للأنظار

إليك مثلاً مما يمكن تقديره من أثر الإذاعة في الأدب :
ذلك الكاتب الذي يصوغ رأيه في فقر محبوبه ، وجمل محكمة ،
أو يلتمع إلى فكرته إلماعة مجازية خاطفة ، متخذاً لذلك فتونا من أقيسة
المنطق ، وبدائع البيان ، أترأه حين يكتب ليلقي ما كتبه في الإذاعة
راضياً عن ذلك الأسلوب ؟

أست تحسبه منتهياً عن ذلك التعمق في التفكير ، والتأني
في التعبير ، مما يتطلب موالاة التمعن والتفطن والمعاناة ، ومعاودة القراءة
مرة بعد مرة ؟

ألا ينتهج المتحدث في الإذاعة منهجاً آخر يجتمع فيه وضوح المعنى ،
ودقة المدلول ، وسرعة انتقال الأفكار إلى الأسماع بلا انقطاع ؟
ودونك مثلاً آخر مما يمكن تقديره أيضاً من أثر « السينما »
في الفن القصصي :

ذلك القصص ، حين يمضي في الكتابة ، لا يجد مفيضاً من الوصف

للأشخاص ، والإبانة عن المشاهد ، والتوسُّع في تحليل خَلَجَات
النفوس . . .

فأما حين يضع الخَطَّة لقصته السينمائية ، فإنه يكتفى بِرَسْمِ معالمٍ
أساسية يستهدي بها « المُخْرِج » . وإن ظهور الشخصية أمام النَّظَّارَةِ
يُنْهَى إليهم في لحظة عابرة أدقَّ صورة لما يقرءونه في صفحات طِوال ،
وإن تأثرهم بما يشهدون من هذه الشخصية ، ربما زاد على تأثرهم بالقراءة
وإن طال مداها .

وكذلك الشأن في التحليل النفسى للأشخاص ، فإن المشاهد
السينمائية في حركاتها اليسيرة ، ومواقف الممثلين بعضهم من بعض ،
وما يتَّسمون به من معالم ، وما يُبدونه من إيماءات وإشارات . . .
كل ذلك خَلِيقٌ أن يقوم مقام الإفاضة في الشرح ، والإيفال
في التحليل .

أَصِفْ إلى ذلك أن ما تتطلبه القصة من عنصر وجداني ، وجوِّ
شِعْرى ، لا يتعدَّى على الفن السينمائي أن يحلوه بألوان من المناظر ،
وإيقاعات من الموسيقى ، يُغني غناء المناجاة بالقول ، والتغنى
بالوصف .

واقْدِ شَهِدْنَا فنَّا من الإخراج السينمائي يحاول إبراز الخواج
النفسية ، واللَّمَعَات الذهنية ، في مشاهد لا يستعصى فهم مدلولها
على الناظر . . .

وإذن فهذه « السينما » ، وتلك الإذاعة ، تحاول كلتاها وَضْعَ

أسلوب مبتكر لفنِّ الأدب ، وخلق أدقِّ جديدة للتعبير عن الحياة . . .

وحجةُ الإذاعة و «السينما» في اتخاذ كلٍّ منهما لما تحاولهُ ، أنهما تسايران التطوُّر الراهن للمجتمع البشريّ ، وتطاولعان رُوحَ العصر الذي يعيش هذا المجتمع فيه .

وتلك حجةٌ لا يثبتُ أمامها خصم ، ولا يُفْلِحُ في نقضِها بيان !

حِزَاءُ الْفَنَانِ

للأدب والفن بواعثٌ من باطنِ النفس ، والكثيرُ من هذه
البواعث إنما هو مواهب تُفَاضُ على المرء ، لا يعرف لها مَأْتِي ،
ولا يَمْلِكُ لها دَفْعاً . . .

فالأدب والفن في بعض عناصره مَوْهَبَةٌ ، إلى جانب أنه دراسة
وممارسة . فكيف تنصح لأديبٍ موهوب أو فنانٍ موهوب ألا يشتغل
هذا بالفنِّ وذلك بالأدب ؟

إنك إن نصحتَ لها بذلك ، فأنت تريدُها على كِبَتِ المَوْهَبَةِ ،
ولا ثمرةَ لمثل ذلك النصيح إلا الضيعةُ والإهمال ، لأنك تطلبُ أن تُطَاعَ
على حينِ أنك تأمر بما لا يُستطاع .

فلسوفَ تظهر المَوْهَبَةُ لا مُحَالَةً ، ولسوف تلتبس المنفذ ، مهما
تقِمَ في طريقها من حوائِلَ وسُدود .

وقد طالما تعالتْ شكوى الأديب والفنان ، ينشأ كلاهما حظه من
التقدير . . فأى تقدير ذلك الذى تتعالى منه الشكوى ؟

يُخَيَّلُ إِلَى أَنَا نَخْلِطُ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ التَّقْدِيرِ :

أحدهما : معنوى ، والآخر : مادى .

وعندى أن الأديبَ والفنان لا تعوزهما أسبابُ التقدير المعنويّ ،
ففى البلد على أيّة حال طبقة من أهل الفكر والرأى ، وذوى الثقافات
والأذواق . . . ومن هؤلاء يتألف رأى عامّ تتوافر له أسبابُ الموازنة
بين الألوان والأفانين ، ويستطيع التمييز بين الطيّب وغير الطيّب ،
إلا إذا تسلّلت عواملُ شخصية تتعرّض بها الأحكام لتيّارات الأهواء ،
فإذا هى مجاملةٌ ودهان ، أو خصومةٌ وغلّاج .

وأما التقديرُ المادى فيجب أن يكونَ ماثلاً للأذهان أنه يخضع
لدوافع وملايسات لا صلة لها بأدب ولا بفنّ ، فهو طوعٌ وقانون العرض
والطلب ، ذلك القانون التجارى المنتزع من حقائق المجتمع ، الذى
لا يحتملُ المجادلة والخلاف ، ولا يلقى سماعاً للمكابرة والعناد .

ومدّخلُ قانون العرض والطلب فى التقدير المادى للأدب والفن
أننا مازلنا أمةً قليلاً من يقرأ فيها ومن يكتب ، قليلاً من يتذوّق فيها
ثمرات الفنون . وأن القراءة والتصفّح والمشاهدة للأعمال الفنية والأدبية
مقصورة كلها أو تكاد على عُشّاق الفن وهواة الأدب . فكأن الأديبَ
يكتبُ لأديب مثله ، وكأنّ الفنان يُصوّر أو يرسم أو ينحِتُ لفنانٍ
على شاكلة .

ولو كتب الكاتب وأنتج الفنّان لسائر طبقاتِ الأمة ، وأقبلت
هذه الطبقاتُ على الأدب والفنّ تستوفى منهما زادها ، لألفيناً الكتاب
والفنانين راضين أجمل الرضا بما يُتاح لهم من كسبٍ طيب ، ورزقٍ
موفور . . .

وإني على الرغم من ذلك كله أنصحُ بالإشتغال بالأدب والفن ، لأنَّ
الأدبَ والفن كليهما ضرورة من ضرورات الحياة ، وحاجةٌ من حاجات
المجتمع . وهما سِمة من سِمات الإنسان المتحضّر ، وليس واحد منهما
بِحِلْيَةٍ وزينة يمكن الاستغناء عنه ، أو يمكن الاتجاهُ به إلى فريقٍ دون فريق .
ومتى كُلمت الدعوةُ إلى تعشق الفن والأدب بالنجاح المنشود ،
نشأت بيئةٌ أدبيةٌ فنيةٌ ، متعارفةٌ متعاطفةٌ ، وقامت سُوقُ للأدب والفن
رائجةٌ . وفي ذلك حفزٌ إلى التنافس في التجويد ، وإغراء للنفوس بالإقبال .
على أني أنصحُ لمن يأنسُ في نفسه نزعةَ الأدب والفن أن يكون
بصيراً بموقفه ، على بيئةٍ من أمره ، غيرَ مخادِعٍ نفسه فيما يبتغي من غاية ،
ثم يشقَّ الطريقَ لـيستبينَ حظَّه ، ويمارسَ من التجارب ما ينفي عنه
آفةَ الجمود .

وإن فطنته في ممارسة التجارب المختلفة ستقفُّه على ما خفي عنه من
مواهبه الكامنة ، وستبصُرُه بالجانب الذي هو أهلٌ أن يبرع فيه ،
تصديقاً للحكمة الخالدة : كُلُّ مَيْسَرٍ لما خُلِقَ له .

وعلى من ينشد الكسبَ والإغتنام أن يتوخى فُرصَ الإقبال ،
وأن يتعرّف وسائل التأثير ، حتى لا يتورّط في خيبة وإخفاق كان
في مُكنته أن يتفادى منهما ، إن أيقظ فطنته ، وجدّد تجربته ، وتنبّك
عن الطريق الذي سلكه .

فأما من طالبَ الفنَّ وحده ، خالصاً له ، فليقدّم زاده ، بوجي صادق
من نفسه ، وباعثٍ قويٍّ من حسّه ، لا يرجو عليه من جزاء . . .

مَجْلِسُ "الدَّبَّاعِ"

كنتُ كلما حَزَّ بَنِي ضَيْقٍ مِنْ صَخَبِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَمَادَّيَتْهَا الْجَافَّةُ ،
وَمَا يُعْشَى الْعَيْنَ فِيهَا مِنْ وَهَجِ زَائِفٍ وَيَهْرَجِ بَاطِلٍ ، فَرَعْتُ إِلَى قَلْبِ
الْمَدِينَةِ الْأَصِيلِ ، حَيْثُ الْحَيَاةُ فِي بَعْضِ أَرْكَانِهِ مَا زَالَتْ مُحْتَفِظَةً بِذَلِكَ
الطَّابَعِ الرُّوحِيِّ الرَّخِيِّ ، طَابِعِ الشَّرْقِ فِي عَهْدِهِ الْقَدِيمِ ، فَأَتَنَسَّمُ مِنْهُ
عِطْرَ أَزْكِيَا يَسْبَحُ بِي فِي آفَاقٍ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْهُدُوءِ ، وَأَحْلَامِ كُلِّهَا رَوْحِ
وَرَيْحَانٍ . . .

فَكُنْتُ أَطْرُقُ تِلْكَ الدَّرُوبَ وَالْمَسَالِكَ الْبَاسِقَةَ الَّتِي تَكَادُ دُورُهَا
تَتَوَاصِلُ وَتَتَعَانَقُ فِي أُلْفَةٍ وَوَتَامٍ ، فَأَجُوزُ بِحَوَانِيتِ الْمَطُورِ وَالشَّجَرِ
وَالْمَبَاسِمِ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الطَّرَائِفِ وَالتَّخَفِّفِ الشَّرْقِيِّ الصَّمِيمِ ، يَنْفَحُ مِنْهَا
رَيَّا الْعَصُورِ السَّوَالِفِ ، وَتَتَرَاءَى فِيهَا أَطْيَافُ الذِّكْرِيَّاتِ الْعَذَابِ . فَيُخَيَّلُ
إِلَيَّ وَأَنَا أَجُوسُ خِلَالَ هَذِهِ الْمَسَالِكَ وَالدَّرُوبِ كَأَنِّي فِي مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ
التَّارِيخِ الشَّرْقِيِّ الْعَتِيقِ ، تَتَخَايَلُ فِيهَا أَشْبَاحُ تَعْدُو وَتَرُوحُ فِي مَلَابِسِهَا
الْفَضْفَاضَةَ وَعَمَائِمُهَا الْمُهَنْدَمَةَ ، وَهِيَ تُرْسِلُ نَظَرَاتِهَا هَادِئَةً طَيِّبَةً تَنْمُ عَنْ
سَرَائِرِ صَافِيَةٍ وَنِيَّاتِ كَرِيمَةٍ . وَكَأَن تِلْكَ الْأَشْبَاحَ لَيْسَتْ إِلَّا شَخْصِيَّاتٍ
مُحِبَّةٌ أَعْرَفَهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، أَلَمَحُ فِيهَا أَرْوَاحَ « ابْنِ سِينَا » وَ« الْفَارَابِيِّ »

و « ابن رُشد » ومن إليهم من العلماء والأدباء والفقهاء . . .

كنتُ أسير وأتابع سيرى ، حتى يؤدِّي بنى الطريقُ إلى
« خان جعفر » ، فسرعان ما أتجه إلى مَبْنَى أَثَرِيٍّ وديع ، فلا أكاد ألبحُ
بابه حتى أجدَ فيه على دَكَّة في ركنٍ قَصِيٍّ شَيْخًا وَقُورًا ، جالسا جِلْسَتَهُ
الرَّخِيَّةَ ، في ملابسٍ ساذجة ، متلفعًا بعباءته ومُطَرَفِه ، وهو قانع بعزلته
يستمرئ سُوءِ عَات طمأنينة وصفاء ، ويحتسى الشاي على مهل ، ويدخن
اللفافة تلو اللفافة ، كأنه يستعِضُّ بمسامرتها عن مجالس الناس . . .

إذا تفرست في وجهه طالعت فيه غصونًا ومثاني تطوى أعباء
السنين وتجارب الحياة ، وعلى جبهته العريضة تتوضَّح سِمَات من الألمعية
وتوقد الذهن ، ومن هذه الطَّلعة الزاخرة بألوان التعابير ينبعث نورٌ
يُشْعِرُكَ بأنك أمام رجلٍ فَذٍّ ، وشخصية عاصرة .

ذلك هو صديق الشيخ « إبراهيم الدَّبَّاح » !

كان لا يكاد يُحِسُّ قدومي ، حتى يغمرني بفيض من التحية والحفاوة
يدكرني بشاشة الرجل العربي وما يحمل بين جنبيه من الشمائل الحُسْنَى
والسجايا العُزَّى . . . وكأن هذا اللقاء البهيج هو أولُ الغيث الذي ألقاه
من مُتَعَةٍ صافية في ذلك الجوِّ الشرقيِّ الحبيب !

وما أسرع أن يفيض الصديق على من تبعه المتدفق إيناسًا وإمتاعًا .
فيسترسل في حديثه ، وأنا مُصْغٍ إليه ، أرقب مُحيَّاه النبيل الذي أسبغت
عليه الشيخوخة رُوَعَةً ومهابة .

كان ذليقَ اللسان ، عذبَ الكلام ، فكِهَ الروح ، تتخلل نبراته

تلك البُحَّة الرقيقة ، وهو يُفْرِغُ نفسه في حديثه ، فيتجلى فيه صدقُ
اللهجة ، وطهارةُ الإخلاص ، والدقة في الوصف والتعبير . . . فكان
كأنه يبعث أُمَامِي صوراً حيَّةً مُجَسَّدةً لمن يتناولهم بالحديث ، صوراً يُضفي
عليها من عبقرية الشاعر ، ورُوح الفنان ، ما يجعلها أمثلةً جميلةً من خَلْقِ
الفنِّ الرفيع !

ولقد كان آية عصره في قوة الذاكرة ، وحضور البديهة ، وسعة
الإطلاع . وكان أعجوبة الزمن فيما يختزن في صدره من شئون الناس
وأحداث الدهر ، إلى جانب ما يروى من فاخر الشعر وبارع النوادر .
إنك لتَمُضِي الساعة في إثر الساعة ، وأنتَ بهذا الحديث مسحورُ
السَّمْعِ ، مسحور الفؤاد . تمرُّ عليك أشتات العصور وألوان الشخصيات
وخروب المشاهد والأحداث ، فكأنك تشهَدُ « فلماً » رائعا ترى فيه
دُولاً تدُول وأخرى تنهَضُ ، وقصوراً تتداعى وأطلالا تشخص ،
وأقدارا تتداول أناساً بالطلوع والأفول . . .

وإن مُحدثك العظيم ليباغِ قِمة الروعة إذا تناول بحديثه تلك الحَقبةَ
التي عاصرها ، وتلك الشخصيات التي لَقِيَهَا وصاحبها . إنه ليتحدث
عن أمراء عروش ، ووزراء دُول ، وزعماء شعوب ، وقادة فكر ، ورُسلِ
إصلاح ، وطلائع نهضة . . . ويُعَرِّجُ بحديثه يَمَنَّةً وَيَسْرَةً ، فتراه يُغَيِّرُ
ويُنَجِّدُ ، فيتحدث عن الصعاليك والمفاليك وأهل المغامرة ورُواد السَّبيل
وغيرهم من المبرزين في حلِّيات الحياة على اختلاف طبقاتها عالية ودانية . .
وتستمع إليه حيناً ، فإذا هو يَنْبُشُ دَفائن الأسفار في أدب أو لغة

أو تاريخ ، وإذا هو يَقْصُّ عليك من غريب الروايات وشائق الأسفار ما يدلُّك على أنه جوهرىٌّ ماهرٌ في التمييز بين اللَّآلِئِ والأصداف !
فإذا استنشدته من قَرِيضِهِ ، أنشدك قلائدَ وخرائدَ ، فتسمع شعراً رقيقاً يَفِيضُ بصدق العاطفة ، في ديباجةٍ عربيةٍ المَنَزَع ، ترجع بفصاحتها إلى عصور العربية الزواهر . وإنه لَيْسَهُلُّ عليك أن تعرف طابعه في شعره ، وأن تُمَيِّزَه من غيره من الشعراء بخصائصه التي لا يَنازعه فيها منازع .

وإن كان لنا أن نَأْسَى على شيء فاتنا منه ، فإن أولَ ما يؤسفنا أنه لم يُعَنَّ بتدوين مذكراته ، ولم يُودِعْ بطونَ الصحف ما أودَعَ صدره الرَّحْبَ من غَوَالِي الذكريات ... ولو عُنِيَ بتدوينها لكان لهذه المذكرات أكبرُ شأنٍ في اجتلاء رُوح العصر الذي عاش فيه . وهو حَقِيقَةٌ من تاريخ الشرق لها أكبرُ الأثر في توجيه مصائره . فإنها طليعةٌ وَعْيِ الشرق ، ومَشْرِقُ يقظته ، وفاتحةٌ أَهْبَتِهِ للجهاد في سبيل التحرُّر والنهوض .

باختفاء ذلك الشيخ الكبير تَخْتَفِي تلك المعلمة الضخمة ، وذلك السِّفَرُ النفيس ... فوا أسفاه عليه وعلى ما وَعَى صدره من تاريخ الجيل !
لقد عاش الشيخُ « الدِّبَّاع » عمراً ليس بالقصير ، اتصل فيه بالناس خاصةً وعامةً ، وذاق فيه الحياةَ شَهِدَاً وصَابَاً ، فتغلغل في صميم الدنيا ، وفهمها حقَّ الفهم . لم يَعِشْ حياته عَبَثًا ، بل أفاد من كل لحظة ، وانتهر كل فرصة ، فكانت تجارِبُهُ أضعافَ عمره . ولقد وَلَّى عن الحياة بعد أن اشْتَفَى الكَأْسَ ، واستوعبَ الثَّمَالََةَ ... وكأنه ينظر إلى الحياة قائلاً :

ماذا في مستطاعك أن تُقدِّميه إلىَّ بعدُ ؟
سأُبرِّحكِ إلى ما هو خيرٌ وأبقى .
سأواجهُ حياةً جديدةً أنعمَ بها في العالم الآخر .
أيتها العاجلة الفانية :

لقد بليت ، وذُبلتُ زهرتك في يدي ، فأنا ماضٍ عنك إلى
نعيمٍ مُقيمٍ .

أي صديقي الراحل .

أستودِعُكَ اللهَ .

وإلى لقاءٍ نستأنف فيه حُلُوَ الحديث ، لا في « خانِ جعفر » ولكن
في « خانِ رضوان » . . . نجلسُ على أريكةِ الفرْدَوْسِ ، ونُسْقَى من
رَحِيقِ مختوم !

السيد طينجات

كان بدء اتصال بـ « علي حسن سليمان » أغني الأستاذ « طينجات » منذ أكثر من عشرين عاماً ، إذ كنتُ أعملُ على نشر مؤلفات شقيقي المرحوم « محمد تيمور » . قَدَّمَهُ إلى صديقنا الأستاذ « زكي طليمات » ، لِيَذْسخ بعضَ أصول الروايات . فالتَقِينَا في منزلي . ولا أزال أذكر تلك اللقِيَّة الأولى في الحقيقة ، حيث أخذنا نتبادل الحديث . وراعني منه أول مرة ذِلاقةً لسانه ، وقوة تدفقهِ ، فما أسرع أن مَلَكَ زمام الموقف ، واندفع يتحدَّث في شَتَّى الشُّئون التمثيلية ، فلم أملكُ إلا التسليم له بالبطولة في فن الكلام . . . وانتهت هذه اللقِيَّة دون أن نتعرَّضَ للموضوع الذي حَضَرَ من أجله . فكانتُ هذه أولَ بادرة من خصائص الأستاذ ! وتَوَالَى لِقَاؤُنَا بعد ذلك ، فتوضحتُ لي شخصية السيد « طينجات » جانباً بعد جانب . وكان أكبر ما توضَّح لي منها أنها شخصيةٌ ليست من الهَنَات الهَيِّنَات ، بل إنها متشابكةٌ النواحي ، تستوجبُ الفحص والتشريح . وليس من العجيب أن أجد هذه الشخصية التي طالعتني بطرافتها وشذوذها يوماً بعد يوم ، تُلهِمُنِي عملاً من أعمال الأديبة ، أقصِدُ قصة : « أبو علي عامل أرتيست » . .

وينبغي أن أنبّه إلى أنني لم أَرِدُ في قصتي وَصْفَ السيد « طبنجات »
والتقيّد بتاريخ حياته . بدليل أني قلتُ في وصف « أبو علي » بطل قصتي :
« وكان قزماً هزيل الجسم ، يدين طويلتين كيدي الغوريلا ، ووجهه
طويل أعجف ، بأنفٍ مدلى على فمه ... » وكل الذين يعرفون « طبنجات »
يدركون بالبداهة أن هذه الصفات لا تنطبق عليه تمام الانطباق !

هذا من جهة الوصف ... فأما من جهة تاريخ الحياة ، وموافقته لما
في القصة ، فقد أثار في الدهشة أني تبينّت بعض التشابه بين ما أوحته
إليّ المخيالة وما ثبت لي أنه واقع من حوادث الأستاذ ...

فلا أنسى أنه ذات يوم ، بينما نحن خاليان في الحديقة ، إذ طلب
إليّ أن أنتجى به ناحية ليُسِرَّ إلى شيئاً . وهناك كشف لي عن حقيقة
هذه المشابهة في بعض المواقف !

وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن ثمة فوارق متعددة بين القصة
والرجل والبرهان الأعظم على ذلك أن « أبو علي الأرتيست » انتهت
حياته في شَرخ الشباب ، فأراح واستراح ، ولكن السيد « طبنجات »
— أطال الله بقاءه — جاوز حدّ الأربعين ، وما يزال حيّاً يسعى
حتى كتابة هذا المقال !

والمعروف عن الأستاذ أنه « نَسَّاخ » في « الفرقة القومية » وفي بعض
الروايات السينمائية تُسند إليه أدوار هزلية سريعة . والحق أن هذا ليس
معبّراً عن مواهبه الكثيرة التي يعرفها له أصدقاؤه . ونحب أن نُظهر منها
ثلاثاً ، وما خفي كان أعظم :

أولاً : أنه يجيد فنَّ « التراجيديا » وقد شهدت له بعضُ المحافل الخاصة مواقف من روايتي « عَطِيل » و « أوديب الملك » وأعجبت به أيما إعجاب . . .

ثانياً : أنه شاعر قدير ، ولكنه لا يحفلُ بنشر قصائده ، أو على الأصح لا يعتمد على الصحف في نشرها ، وإنما يذيعها بنفسه بين من يأنسُ فيهم تقديره . وقد وجد أن هذه الوسيلة أنجع في التمكن من آذان السامعين !

ثالثاً : أنه تقادة ماهر ، آخذٌ بناصية فنّه ، مع تشبُّب هذا الفن وعمقه . وهو في الواقع متعشِّق للنقد ، شديد الحسِّ في شأنه ، حتى إنه في بعض الأحيان لا يملكُ نفسه إذا لم يُعجبه كلام فيما ينسخه من روايات المؤلفين ، فتراه يُصليح ما يبدو له ، غيرَ لاورٍ على شيء . . . وقد وقع منه أثناء نسخهِ لى بعض القطع أن قامه لم يُعني من التغيير والتبديل . وإننى — مع اعترافى بأنه على حقٍّ فيما اقترفت . . . — لم يسعني إلا الاحتفاظُ بما في الأصل الذى كتبته ، إبقاءً على المجهود الفنى للأستاذ أن يضيع في آثار الغير !

وخشيّة الإثقال على القارئ ، لم نذكرُ أنه مؤلف مسرحى ، وأنه كذلك قصاص . وحسبُه أن له في الميدان الأول رواية « الحشرات » التى يعرفها كل من يشترك فى أحاديث « قهوة الفن » . . . فأما عمله فى الميدان الآخر فهو أدهى من أن نُجمله فى سطور . وهناك فى داره كوماتٌ مكدسة من الأوراق المُخبَّرة تجمع شتات مؤلفاته التى كان

يَتَوَالَى ظُهُورُهَا لَوْ قَامَتْ فِي الْبَلَدِ هَيْئَاتٍ مَنْظُمَةً ، تُتَعْنَى بِإِتِّجَاعِ أَهْلِ
الْفَنِّ الْمَظْلُومِينَ ! .

وَفِي ظَنِّي أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ الْمَوْجَزَ يَصَوِّرُ لِلْقَارِئِ عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ
شَخْصِيَّةَ السَّيِّدِ « طَبَنُجَات » .

وَلَعَلِّي أَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ أَدَيْتُ دَيْنَ الْأَسْتَاذِ عَلَيَّ ، إِذْ كَانَتْ أَحَادِيثُهُ
الْغَالِيَةِ وَحْيًا لِأَثَرٍ مِنَ الْآثَارِ الْقَصَصِيَّةِ الَّتِي جَرَى بِهَا الْقَلَمُ !



أحدث مؤلفات

الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

قصص تمثيلية :

ابن جلا
فداء
اليوم خمرا
حواء الخالدة
الخبأ رقم ١٣
سهاد
المنقذة
عوالى
قنابل
أبو شوشة والموكب

صور وخواطر :

شفاء الروح
ملامح وغضون
أبو الهول يطير
عطر ودخان
فن القصص
ضبط الكتابة العربية

مجموعات قصصية :

كل عام وأنتم بخير
إحسان لله
خلف الأثام
شفاه غليظة
بنت الشيطان
مكتوب على الجبين
فرعون الصغير
قل الراوى
شباب وغانيات

قصص مطبوعة :

كايوباترة فى خان الخليلى
سلاوى فى مهب الريح
نداء المجهول

عَرْضٌ وَتَحْلِيلٌ

للكُتُبِ التي أصدرتها بجنَّةُ نشرِ المؤلفاتِ التيموريةِ

ضبطُ الأعلامِ

مرجعٌ صحيحٌ لبعضِ الأعلامِ التي ردت إلى أصلها خالية من التحريف اللساني أو التصحيف القامى . وكثيراً ما يعيا الأدياء والمشتغلون بالتاريخ الأدبي بالبلدان أو سواها لمعرفة النصوص الأدبية .

الرُّمُتال العامة

هو وصف كامل لعيشة الناس وأحوالهم في طرافة وفي إبداع ، يتحدث عن العامة وغير العامة بأسانهم ، ويصور حكمتهم . (سيعاد طبعه)

الكُنَايات العامة

قاموس شامل لكُنَايات العامة ودورانهم في العبارة ، ولفقهم المعنى مع اللفظ . علاوة على الدقة في الحكمة الموسيقية .

لسبُّ العرب

ثمرة من ثمرات مطالعات تيمور باشا الكثيرة الفنية ، ودراسة وافية لشيء الألعاب في الصدر الأول .

(سيعاد طبعه)

البرقيات المرسلة والمقالة

هى نثر مضغوط ضغط الشعر ، محبوبك حيكته ، قليل الألفاظ ، غزير المعنى . بل هى نفسها البلاغة التى تغنى فى إنجازها عن تفصيلها .

أوهام سُمراء العرب فى المعالى

من الدخائر العلمية النفيسة ، والمراجع الوافية الدقيقة ، التى لا يستغنى عنها كاتب أو أديب .

رسالة فى الرتب والألقاب

عن ألقاب رجال الجيش وسائر الهيئات العلمية وأرباب القلم منذ عهد أمير المؤمنين عمر الفاروق إلى الآن .

سُفاه السروح

للكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية
يتضمن ألواناً شتى من الرسائل الأدبية النفيسة .

كتب خطية نادرة (تحت الطبع)

ديوان عائشة التيمورية

مضافاً إليه القصائد التي لم يسبق نشرها ، إحياء لذكراها الخالدة ، وتقديراً لمكانتها
العلمية والأدبية .

النزكرة التيمورية

معجم شامل للأعلام والبلدان والبحار والأنهار ، وهو يقع في جزئين .

معجم العامية المصرية

وهو من المدهشات في التحقيق اللغوي ، ويقع في أربعة مجلدات من
الحجم الكبير .

المواكب الأدبية

مجموعة نفيسة تتضمن كثيراً من الفوائد والنوادر في اللغة والأدب .

الآثار النبوية

وهي بحوث تاريخية نفيسة اختتم بها تيمور باشا حياته .

ضبط الأعلام والنسب والبلدان

رأت اللجنة إعادة طبع كتاب ضبط الأعلام مضافاً إليه النسب والبلدان
طبعة جديدة في جزئين .

وغير ذلك من الكتب الخطية النفيسة التي تنشرها اللجنة تباعاً ولا تستغنى
عنها المكتبة العربية الحديثة . وتطلب هذه الكتب من سكرتير عام اللجنة

الأستاذ أحمد ربيع المصري

بدارها بميدان المبدولى بجوار متحف فؤاد الصحى — عابدين بالقاهرة

تليفون : ٧٧٧٩٣

ومن جميع المكتبات الشهيرة في مصر والأقطار العربية

